توماس دي كوينسي

مكتبة

الراهبة الإسبانية



ترجمة: عبد المنعم المحجوب

مراجعة: محمد الحباشة

رواية #922

مسكيلياني



الرَاهِبَة الإسبَانيّة

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة

Thomas De Quincey
The Spanish Nun

الكاتب: **توماس دي كوينسي**

عنوان الكتاب: **الراهبة الإسبانيّة**

ترجمة: **عبد المنعم المحجوب**

مراجعة: **محمّد الحباشة**

تحرير: **زياد عبد القادر**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-105-1**

الطبعة الأولى: 2020



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

توماس دي كوينسي

الراهبة الإسبانية

ترجمة: عبد المنعم المحجوب

مراجعة: محمد الحباشة



(1)

ذاتَ ليلةٍ من عام 1592 (أمّا معرفةُ أيّ ليلةٍ تحديدًا، فتلك أُحجيةٌ تفترض 365 تخمينًا)، تلقّى نبيلٌ إسباني من مدينة سان سباستيان المحصّنة، خبرًا مزعجًا من ممرّضة: لقد أهدته زوجته للتوّ بنتًا. ولم تكن هذه أيّ هدية تمنحها له تلك السّيدةُ المسكينة والسّاذجة، فقد سبقَ أن أهدتهُ ثلاثَ بناتٍ هنّ أكثر من عددِ البنات المعقول المسموح به، وفق تخمينه. وربّما ثمّة ابن زائدٌ مخفيٌّ أيضًا، لكنّ فائضَ البنات في إسبانيا أمرٌ مزعجٌ جدًّا. لذلك أقدمَ على ما يمكن أن يفعله في مثل هذه الحالات كلُّ رجلٍ إسبانيّ مُتغطرس وكسول. فقد لفَّ وليدته البغيضة في منديل، ثم لَفَّعَ عُنَقَه بعناية، وجرَّ نفسه إلى دَيْر القدّيس سباستيان المجاور، ليسَ إلى أيّ دَيْرٍ في تلك المدينة، ولكن إلى الدّيْر المخصّص لهذا القدّيس من بين عدّة أديرة أخرى.

من الجيّد أنّنا في هذا العالم العُدوانيّ نتخاصم بشراسة حول الأذواق، بما أنّ الاتّفاق حول ما يعجبنا ونجده مُلائمًا لنا، يولّد

المزيد من القِتال أكثر ممّا يتولّدُ عن الاختلاف. فتلك الوليدة الضئيلة كالشّرغوف، الوليدة التي لم يحتمل والدها العُلجوم بقاءها ولو لعشر دقائق في منزله، برهنت أنّها موضع ترحيبٍ في دَيْر الرّاهبات، بينما كانت موضعَ نفورٍ في مكان آخر.

قبّلتْ رئيسةُ الدّيْر، وهي خالةُ الرّضيعة الغريبة، الوليدةَ الصّغيرة وباركتها. أمّا الرّاهبات المسكينات اللّواتي لم يُنجبن أطفالاً قَطُّ، وكنّ يَتُقْن إلى بعض التّسلية، فقد تحمّسن كثيرًا لاستقبال هذا الكائن اللطيف. شكرت الرئيسةُ النّبيلَ على هديّته الرّائعة، وشكرته جميع الرّاهبات، حتّى إنّ التمساحَ العجوز طَفَقَ يبكي وينشج بعاطفيّة كبيرة على ما اعتبره فيضًا من السّخاء في نفسه، السّخاء الذي لاحظَ أنّه نقطةُ ضعفه مباشرةً بعد الحنان الأبويّ. يا له من ترفٍ أحيانا لشخصٍ كلبيٍّ أن يتمكّن من إنهاءِ صفقةٍ في كلمتين. كان كلّ شيء يدعو إلى الامتنان في دَيْر القدّيس سباستيان، امتنانٌ للنّبيل مِن قبل كلّ مَن في الدّيْر لقاء هديّته، حتى صار في النهاية يعبّر عن امتنانه لهنّ لامتنانهنّ له. ثمّ لهجت الألسنُ بشكر القدّيس سباستيان: من كبيرة الراهبات لإرساله قدّيسةَ المستقبل، ومن الرّاهبات لإرساله مثلَ كلّ هذا الحب في دُميةٍ بشرية، وأخيرًا من الأب على هذا المجمَع المتين، والمسكن الدائم...

«إنّه مسكن سيمنع قطّتي من الخروج إلى العالم الشائك والخطِر»، أسرّ العجوز الماكر في قرارة نفسه.

أليس كذلك؟ أيّها النّبيل، أظنّك حين تأتي في المرة القادمة،

وقد تكون الأخيرة، لترى قطّتك فلن تجدها في دَيْرٍ من أيّ نوع. في الأثناء، شخص واحد لم يشارك في ذلك التشريف العام، وهو «القطّة» نفسها التي تمدّدَ جسمُها الصغيرُ في هدوء بين ذراعي راهبة شابة، متبسّمةً بعينين ناعستين تلمحان بصيص الشموع المضاءة. لم تقل القطّة شيئًا، فما فائدة الكلام عندما يكون العالم كله ضدّك! ولكن، لو أنّ القديس سباستيان مكّنها من قول الحقيقة كاملةً، لقالت: «إذن، أيها الرجل النبيل، كنت تتدبّر لي مأوًى أعيش فيه طيلة حياتي! انتظر إلى أن تطول مخالبي، وعندها سيأتيك جوابي».

هكذا كانت خيبة الأمل تتجمّع، أمّا في ذلك الوقت فلم يكن ثمة ما يدعو إلى ذلك، فالتمساح العجوز الأب لم يكن يشعر بخيبةِ أمل، مطمئنًا لتوقّعاته بأنّه ليس عليه القلقُ، ولا دفعُ أيّ قدر من المال من أجل أصغر بناته؛ هكذا برّر لنفسه الحقّ في نسيانها، وقد نسيها بالفعل بعد أسبوع واحد، فلم يتذكّرها أو يفكّر فيها ثانيةً سوى مرّة واحدة. أمّا كبيرة الراهبات التي لم تكفّ عن الصلاة على أمل أن يُستجاب لدعواتها، فقد كانت راضية بالقدر نفسه. وعلى مدار عدة سنوات، كانت غالبًا ما تسألُ القطّةَ إن كانت ستصبح قدّيسةً، فتجيبها بأنها ستكون كذلك إذا أعطاها القدّيسون ما تشتهي من حلويّات. لكن، من بين الجميع، الراهبات هنّ أكثر من أصيب بخيبة الأمل، فكلّ آمالهنّ المعلّقة على تلك الدمية البشرية تبخّرت في ضوء ما كانت هذه القطة تسبّبه من جَلَبَة ومشاكسات دائمة ضدّ سلام الراهبات الأكبر سنًّا.

لا يوجد على الإطلاق أيّ ثعلب أثار الذعر في قنّ الدجاج، بالقدر الذي أثارته تلك القطة في مَهْجَع الأخوات الكبيرات. أمّا السيدات الأصغر سنّا فقد فررن من مكائدها المتتالية وقد اضطرب وقارهنّ الكنسي بسبب حماقات تلك الهريرة المحظوظة.

منذ فترة طويلة كانت قد تلقّت اسمًا معموديًّا[1]، وكان «كيتي»[2]، أو كيت، وهو أيضًا كاثرين، أو الاسم الإسباني كاتالينا[3]. إنه اسم جميل يستدعي كنيتها الأصلية «قطّة»، وبالمناسبة، كان لديها أيضًا لقب عريق ومشرّف هو دي إراوسو[4]، وهو لا يزال حتى اليوم اسمًا متجذّرًا في بسكاي[5]. كان والدها ضابطًا عسكريًا في الجيش الإسباني، ولم يكن يهتم كثيرًا بما إذا كانت «هُرَيْرته» ستصير ذئبًا أو حمْلًا، طالما أنها ستحافظ على «قلعتها»، بعد أن دفعَ رسْمًا بسيطًا للقديس سباستيان لقاء الاهتمام بها ورعايتها إلى الأبد.

لم يكن لكيت أيّ نيّة واضحة في التخلّي عن هذه القلعة وهي تتفتّح مثل وردة في شهر يونيو، طويلةً وقويةً كشجرة أرْز فتيّة. ومع ذلك، وعلى الرغم من متانة جدران الدّير وقوّتها، فإنّ الأجَلَ كان يدنو من اليوم الذي تنقضي فيه -بالمعنى القانونيّ للكلمة- مدّةُ

---

(1) الاسم المعمودي baptismal name: اسم شخصي يناله المرء أثناء التعميد.

(2) كيتي Kitty: يعني أيضًا هرّة.

(3) يقابل اسم كاتالينا Catalina الإسباني (ويعني الطّاهرة) اسمَ كاثرين Catharine الإنجليزي.

(4) De Erauso: اسم عريق في شمال إسبانيا.

(5) بسكاي Biscay: من مقاطعات إقليم الباسك في أقصى شمال إسبانيا.

العَقْد المُبْرَم مع القدّيس سباستيان بشأن رعاية كيت، بل إن أيّ عقود في قلاع أخرى في إسبانيا، بناها القدّيس على الإخلاص النُّسُكي من مُدلَّلتِه كاتالينا، كان يجب أن تُفسخَ فجأةً في ساعة محدّدة، مثل العديد من الترّهات الأخرى من السّندات والوعود الإسبانية في أيّامنا هذه.

بعد بلوغها العام العاشر، صارت كاتالينا أكثر رصانةً وغيرَ منصاعةٍ تماما. بل كانت في بعض الأحيان عنيدةً ومتمرّدة، حتّى أن الأخوات اللّطيفات في دير القدّيس سباستيان، اللواتي لم يكن لديهن شيء آخر يسلّيهن في هذا العالم، بدأنَ البكاء سرًّا، خائفاتٍ من أن يكنّ ربّين عن طريق الخطأ نَمِرةً شرسة، ذلك أن الطفولة، كما تعلمون، تكون مرحة وبريئة حتى عند أشبال النّمرة. ولكن على كلّ حال، ذهب الخيالُ بالسيدات بعيدا جدًّا. كانت كاتالينا طائشةً وطموحة، من غيرِ أن تكون قاسية وفظّة. كانت لطيفةً طالما سمح لها النّاس بأن تكون كذلك، ولكن الويل لمن يجرؤ على الإساءة لها ! ذات يوم، قامت خادمةُ دَيْر لها بعض النفوذ، وهي تعبر الممرّ لأداء صلاة الليل، بدفع كيت عمدًا، وفي المقابل، كيت التي لا تؤجّل ردّ ديونها، رمقت الخادمة بنظرة نفّاذة لم تنسها أبدًا وظلّت معها كتذكار مخيف رافقها إلى قبرها. بدا كما لو أنّ لكيت دما استوائيّا يجري في عروقها ويناديها باستمرار إلى المناطق الاستوائية. ولعلّ مردّ ذلك إلى منظر «السماء الزرقاء البهيجة» فوق جبال بيسكاي البنفسجية، ومنظر المحيط الهائج، وهي المناظر التي شاهدتها يوميًّا من حديقة

دَيْر الراهبات. وَإذا كان نصف ذلك فقط يعود إلى هذه المناظر، فإن النصف الآخر يكمن في تلك الحكايات الذهبيّة التي تدفّقت على حُرُمات الأديرة، مثل ضباب صباحيّ لامسته أشعة الشمس المبكّرة، حكايات لا تنقطع أخبارها عن ممالك عالم جديد اكتشفه أقاربها بمساعدة بسيطة من حصان ورمح. على القارئ أن يعلم أنّ ما يقرؤه ليس قصّةً من قصص الفروسية، وليس حكايةً خياليّةً على الأقل، ومن المناسب تذكير القارئ بالروايات الحقيقية التي كتبها أريوستو[1] أو سبنسر[2] حول مثل أولئك السيدات المحاربات كمارفيزا، أو برادامانت[3] في كتابات الأول، وبريتومارت[4] في كتابات الثاني، اللواتي لم يكنّ في الحقيقة من النساء المستبعد تخيّلهن في المجتمع الحديث. الكثير من الرجال البواسل، كما سترون قريبًا، رأوا أن كيت، وقد امتطت جوادها بثبات مع سيف ثقيل في يدها، كانت واقعا حقيقيّا تمامًا.

حلّت نهاراتٌ وليالٍ، وكيت المسكينة التي كانت طوال خمس عشرة سنة تُهَدْهَد برفق بين ذراعي القديس سباستيان وفي أحضان بناته، لم تَعُدْ تجدُ -من الآن فصاعدًا- مساحةً للتنفّس بين العواصف

---

(1) لودفيكو أريوستو Ludovico Ariosto: (1474- 1533) شاعر إيطالي، له ملحمة «أورلاندو فوريوسو» Orlando Furioso عن الحروب بين الأوروبيين والمسلمين.

(2) إدموند سبنسر Edmund Spenser: (1552- 1599) شاعر إنجليزي، له ملحمة شعرية بعنوان «ملكة الجن».

(3) مارفيزا Marfisa، وبرادامانت الأولى Bradamant: من الشخصيات الخيالية من ملحمة أورلاندو فوريوسو.

(4) بريتومارت Britomart : من شخصيات «ملكة الجن».

الأبدية، وكان عليها أن ترى صومعتها المسالمة، وتلقي نظرةً على المعبد المقدّس، للمرة الأخيرة.

كان ذلك أثناء صلاة الغروب، مع تلاوة ترانيم المساء، عندما قرأتْ في النهاية إشارةً سريّة بحثتْ عنها طويلًا تُنْبئُها عن موعد رحيلها. حدثَ أن خالتها، كبيرة الراهبات، قد نسيت كتاب الصلوات[1]، ولأنها تركته في درج طاولتها الخاصّة، لم تُرد إرسال خادمة لجلبه، بل أعطت المفتاح لابنة أختها. وما أن فتحت كيت درج المنضدة حتى رأتْ بلمحِ البصر الشيءَ الوحيد المُرتجى في حالات الطوارئ الكبرى، والذي كانت تتوق إلى الحصول عليه طوال حياتها، وها أنّ اللحظة قد حانت، فإذا أهملَتها قد لا تتكرّر مرةً أخرى أبدًا. كانت مجموعة ضخمة من المفاتيح موضوعة هناك في الدرج؛ مفاتيح الدّير، تلك القلعة المنيعة حتّى أمام أعتى الجيوش. أيها القديس سباستيان! أترَى ما الذي ستُقْدِم عليه طفلتك المدلّلة؟ نعم، من المؤكد أنها ستفعل ذلك، مثلما من المؤكد أن اسمكَ هو القديس سباستيان. هكذا عادتْ كيت إلى خالتها بكتاب الصلوات والمفتاح، ولكنها حرصتْ قبل ذلك على أن تفتحَ قفلَ الباب الرّهيب الذي تدور حوله حياتها بأسرها، وأن تتركه مواربًا. وفيما قدَّمتِ الكتابَ والمفتاح إلى كبيرة الراهبات، اشتكتْ أمامها من الصداع، فقالت لها «آه، يا كيت! ماذا شهدتِ بعدُ من نوبات الصّداع، باستثناء ما تشعرين به الآن، وربّما لاحقا رصاصة

---

(1) كتاب الصلوات Breviary: كتاب موجز تتلى منه الصلوات اليومية في الكنيسة.

طائشة أو شيء من هذا القبيل؟» ثمّ سمحتْ لها خالتها، وهي تقبّل جبينها، بأن تأوي إلى السرير. إثر ذلك، وفي ثلاثة أرباع الساعة، ستحصل كيت على ما يكفي من وقت لتحرّر قاربها من مرساته، وتجذّف به، ثم تمضي قدمًا للخروج من خليج سانت سباستيان الصغير إلى محيط الحياة الكبير.

كاتالينا، كما يدرك القارئ، لا تنتمي إلى فئة الأشخاص الذين أولي لهم اهتماما مخصوصا، لكن المرء أينما كان، يحبّ الحيوية والشجاعة التي لا تُقهر. أنا، من ناحيتي، لا يعجبني أي شيء يلفت الانتباه إلى هذا العالم، فما يثير اهتمامي هو طفلٌ مجبول من الأحلام ورهافة الإحساس ينأى بنفسه عن العالم البغيض والعاجز. كانت كاتالينا نموذجًا مثاليًا للفئة المستعدّة لمواجهة هذا العالم، وهي التي عبّرت عن حبّها له من خلال مناجزته وركله ليتدحرج من سنة إلى أخرى، لذا فقد كانت دائما أفضل ما يُعجب به المرء في هذه الفئة، على الرغم من أنها ليست فئةً مقبولةً على الدوام. هذا وقد وهبها دورها في الحياة أربعة مزايا: الأولى، بنية متينة، ومعصما قويّا فعلًا. والثانية، قلبا جَسورا. والثالثة، عقلاً فطنًا لا يهمل ما يجب أن ينجزه بسبب أي وَهَن يصيب الخيال، والرابعة، بشرة كثّة بعض الشّيء - ليس بالمعنى الحرفيّ لأنّها كانت جميلةً ومتألقةً- ولم تكتسب هذه البشرة إلاّ عندما صارت امرأةً ناضجةً تنحدر من أسرة في أقصى شمال إسبانيا. لكن مشاعرها كانت متبلّدة، إذا أخذنا بالاعتبار بعض أنماط الرقّة والإنصاف والآراء السائدة في العالم، وجميع

الأنماط مهما كانت صعوبتها الشخصية. مع التشديد على كلمة بعض هذه، فهي بالنظر إلى رهافة مشاعرها، لم تهمل أبدا كلّ ما يتصل بجنسها كأنثى.

بعد ذلك بوقت طويل، اعترفت[1] للبابا نفسِه دون إخفاء أيّ شيء، بتِيهها الشقيّ واللاّنهائيّ، وقالت للأب العجوز (وأنا مقتنع بصدق اعترافها)، إنها كانت حتّى آنذاك، في منتصفِ عُمرها، طاهرةً مثل طفل. وبالنسبة إلى العدالة، فقد استبدلت عدالة المعسكرات، (وبطريقة أكثر إثما)، بالعدالة المُثقّفة للمحاكم والمدن. أمّا بالنسبة إلى الآراء السائدة في العالم، فليست هناك حاجة إلى التشديد على كلمة «بعض»، فكلّ ما فعله العالم، أو قاله، أو فكّر فيه، كان جديرا بالازدراء في نظرها، ولعلّها لم تكن على خطأ كبير في ذلك. لا بدّ أن أضيف بأنّ لكاتالينا ميزة خامسة أيضا، بالرغم من أن ذلك سيُبعدنا عن الحكاية بجملتين أو ثلاث، وهي خَصلة تبدو متواضعة، ولكنّها مفيدة حقًّا في عالم يُعتبر فيه طيُّ رسالةٍ وختمها إنجازا مهمّا. كانت فتاةً ماهرة، يمكنها استعمال يدها في أيّ شيء، وسأقدّم لكم مثالين بارزين: كانت الفتاة الوحيدة في هذا العالم، التي تمكّنت من خداع محاكم التفتيش المُريعة والسخرية منها، بينما كانت تجثم على أديرة إسبانيا. فعلتْ ذلك دون تواطؤ مع الخارج، أو ثقة في أحد سوى في نفسها. وبماذا؟ بالاستعانة بإبرة واحدة، ولفيفتيْن من الخيوط، ومقصّ رديء. نعم، كان مقصًّا رديئا جدًّا، على الرغم من أن كيت

(1) الاعتراف بالمعنى المسيحي، أي الإقرار بالخطيئة أمام ممثّل الكنيسة.

لا تقول ذلك في مذكراتها، لكنني أعرفه ببداهةٍ، لأن جميع المقصّات كانت رديئة عام 1607. والآن، من الاستنتاجات الشّاملة إلى الخاصّة -كما يقول المناطقة الموقّرون- ما دامت كلّ المقصات رديئة، فإن البعض منها رديء بلا شكّ. المثال الثاني عن مهارتها سيفاجئكم أكثر، فقد حدث أنها وقفتْ ذاتَ مرّة على منصّة الإعدام، ليُنفّذ فيها حكمٌ بالموت (صدر الحكم بناءً على أدلة قدّمها شهودُ زور)، وكان «جاك كيتش»[1] من حاول أن يربط الأنشوطة تحت أذنها تمامًا، ولكنّ رجل الحبال المُخجِل هذا ارتبك بشكل مُؤسف، حتّى إنّ كيت (التي تعلّمت في تجربة بحرية كبيرة كيف يجب أن تُعقد الأنشوطة) نَفَدَ صبرها من «الفنّان» الخسيس، فأخبرته بأنّ هذا عارٌ عليه، ثمّ أخذت الحبلَ من يده وربطت الأنشوطة بنفسها بشكل متين. وقد حيّاها على ذلك حشد كبير من الناس، بهتافات احتفالية صاخبة. مثل هذا الهتاف كان نبوءةً جيدة. لكن لأتوقف الآن، إذ يجبُ ألاّ أستبق مزيدا من الأحداث.

بفضل ملامح شخصيّة كاتالينا هذه، يكون القارئ جاهزا لفهم قرارها الحالي. لم يكن لديها وقت تضيّعه. كان انبلاج الفجر يعمل لصالحها، إذ عليها الاختباء قبل بداية المطاردة، ولم تُضيّع بالتالي أي دقيقة من الخمس وأربعين دقيقة في اختيار أغراضها وجمعها. بأيّ حال، لم يكن التردد من شِيمها. لذا، عندما قدّرت

---

(1) جاك كيتش Jack Ketch: جلاّد إنجليزي توفي سنة 1686، عرف بالبربرية واتباع طرق خرقاء في تنفيذ الأحكام فصار اسمه مثلًا على كل جلاد أخرق.

أنّ المال هو ما ستحتاج إليه في الخارج، فقد أخذت من محفظة الخالة قطعة واحدة من أربعة شلنات. عموما ليس هذا بالشيء الكثير، فمن منّا سيرفض المشاركة بشلن واحد تضعه كيتي المسكينة في جيب أوّل سروال سترتديه؟

كنت في الرابعة من عمري، عندما ارتديت، لأول مرة، تنورة فوق سروال قطنيّ أصفر بدا خنثويّا. ما أزال إلى الآن أذكر ذلك، وكيف أنّ صديقاتي ملأن جيوبي نقودا من فئة ثُمن جنيه[1]، وهو مبلغ لا يسدّد أي شيء في أيّامنا هذه. لكن ما تكونُ ادّعاءاتي البائسة أمام ادّعاءات كيت؟ فكيت فتاة نضرة في الخامسة عشرة، لم تمسسها حمّى البَرداء، وقبل أن تشرق شمس الغد، سيكون عليها أن ترتدي أول سروال لها حاكته بنفسها. من بين كلّ الأغراض الثمينة في مستودع الخالة، لم تأخذ كيت سوى «شلن» واحد، وكمّية كافية من الخيوط، وإبرة سميكة واحدة، ومقصًّا رديئًا (كما قلت لكم من قبل، إذا تفضّلتم بتذكّر تلك الأشياء). وهكذا صارت مستعدةً لقطع الحبل الذي يربطها بالقديس سباستيان، والفرار إلى أي ميناء في أي مكان. كانت اللمسات الأخيرة لاستعداداتها تقتضي اختيار المفاتيح المناسبة. تصرّفت بنفسِ الحذر، فلم تأت أيّ تصرّف مجّاني. لم تأخذ مفتاح قبو النبيذ، وهو ما كان سيثير غضب كاهن الاعتراف الطيّب، بل أخذت فقط المفاتيح التي تملكها، إذا كانت فعلا كذلك،

(1) ثُمن جنيه half-crown: عملة إنجليزية قديمة سكّت في القرن السادس عشر وانتهى تداولها في القرن العشرين.

فتلك المفاتيح أوصدت عليها الأبواب حائلة بينها وبين الحرية. يقول السفسطائيّ الكاثوليكي: «أروني حقّها القانوني في الخروج من ذلك الدّيْر؟»، ونحن نجيب: «أرنا حقّك في حبسها هناك». وسواء يعتبر ذلك صوابا أم خطيئة في قوانين السّفسطة الصّارمة، فإنّ كِيت قد عزمتْ على النّجاة بنفسها، وهذا ما فعلته. وخوفًا من أن يتسلّل أي شخص بينما تتواصل صلوات المساء، فيسرق موقِد المطبخ، قامت بحبس صديقاتها القديمات، ثم بحثتْ عن أقرب مأوى لها. لم يكن الهواء باردًا في ذلك الوقت، فهرعت إلى غابة من أشجار الكستناء، ونامت إلى الفجر تحت أوراقها الذابلة، بفضل الطعام الإسباني وسنّ الشباب، اللذين يجعلان الهضم يسيرا والنوم عميقا.

بصياح القبّرات، استيقظت كاتالينا. لم يكن عندها وقت تضيّعه، فهي ما تزال بثوب الراهبة، ناهيك عن أنها معرَّضةٌ للقبض عليها من أي شخص في إسبانيا. بإصبعها المسلّح (أوه نسيتُ الكشتبان، لكن كيت لم تنسَه)، بدأتْ تحيك ثوبًا مطرّزًا، فقلبتْه على جانبه بشكل خاطئ، ولكن بالسحر الكامن في أيادي النّساء فقط، أصلحته وشرعت على الفور في حياكة سروال من نوع ويلينغتون[1]. أجرت كلّ التّعديلات الأخرى بما تملك من مواد، وكانت جيدة بما يكفي لإخفاء الخطَرَيْن الرئيسيين: جنسها ومظهر رهبنتها. ماذا

(1) عرف آرثر ويليسلي (دوق ويلينغتون Wellington لاحقًا) بابتكاره نمطًا من الأزياء العسكرية كالأحذية والسراويل.

عليها أن تفعل بعد ذلك؟ يذكّرنا الحديث عن سراويل ويلينغتون، ولكن بالكادِ يُذكّرها هي، بفيتوريا[1] التي سمعتْ بها على نحو عابر من إحدى قريبات أمها. إلى فيتوريا، إذن، عرّجَتْ طريقَها. ومثل دوق ويلينغتون[2]، ولكن قبله بأكثر من قرنين من الزمان، (مع أنه كان أيضًا يصحو مبكّرًا) أحرزتْ نصرًا كبيرًا في ذلك المكان. سارتْ ليومين متتاليين بأمتعتها على ظهرها، دون أن تقتات على شيء غير التّوت البري. لكنّها اعتمدت على شيء أفضل وبحماس كبير، تماما مثل الدوق، وهو اقتحام تحصينات بيتِ صديقٍ عزيز بسيفٍ في يدها وفي وضع هجوميّ، ودخول غرفة إفطاره. هذا القريبُ اللطيفُ شيخٌ مسنٌّ يملك نقطة ضعف واحدة، أو ربّما هي فضيلته الوحيدة في هذا العالم، بعد الحرص على الكمال، وهي الحذلقة.

وعن هذه الإشارة تحدّثتْ كاتالينا. حفظت عن ظهر قلب، بفضلِ خدماتها في الدَّير، بعض العبارات اللاتينية. اللاتينية! أوه، كان ذلك ساحرًا، وخاصّة في عُمرٍ صغير! وجّه لها الدّون الإسباني الجليل لوما لطيفا، ثم تراجع عنه في الحينِ، وعانق الشابَّ الطّموح الذي يرتدي سروال ولينغتون يصل إلى صدره الناهد المقوّس. في هذا البيت، كان نسيجُ الحياة مُختلِطا. كانت الطّاولة جيدة، لكن كيت

---

(1) يسترسل دي كوينسي في الحديث من ويلينغتون إلى مدينة فيتوريا Vittoria الإسبانية، علمًا أن ويلينغتون قاد الجيش البريطاني- الإسباني- البرتغالي في معركة فيتوريا (1813) ضد الجيش الفرنسي بقيادة جوزيف بونابرت.

(2) أطلق لقب دوق ويلنغتون Duke of Wellington للمرة الأولى على آرثر ويليسلي (1769 - 1852) رئيس الوزراء البريطاني.

لم تهتمّ كثيرا بهذا، أمّا التّسلية فكانت من أسوأ ما يكون، وتتضمّن تصريف الأفعال اللاتينية، وخاصّةً أصعب أفعال خارجة عن القاعدة. ما كان يستحقّ امتنان الشّيخ إلى الأبد، كان تعريفه بأيِّ فعلٍ ذابلٍ في الصّقيع، يحتاجُ إلى ماضِيهِ واسمه الفعليّ، وكلّ شيء في العالم، كالأزهار أو الغلال، يجعلُه جذّابا. كان يتحرك طوال اليوم جيئة وذهابا، يحرّك كتائبه المفضّلة من الأفعال، المتواترة أو الاستهلالية، وأفعال الإحالة، كأنّها أحصنة وجنود وسلاح مدفعيّة، يغيّر الجبهة، يتقدّم بمؤخرة الجيش، أو يتخلّص من المناوشات، إلى أن تفكّر كيت، دون أن تستسلم للإغماء، في مرجعٍ مّا. سبّبَ لها ذلك صداعًا حقيقيًّا فكّرت في أنّها لم تر مِثله إلاّ مرّات نادرة خلال صلواتِ الدَّيْر. ولكن هذا المكان كان أسوأ فعلًا من دير سان سيباستيان نفسه. يذكّر هذا بمسرحيّة فرنسيّة مرحة كتبها بول تيبو أو كاتبٌ آخر مثله، يصفُ فيها حفلةً في الرّيف، بعد أن انخرط الجميع، تحت حالة مُماثلة من القُنوط، في تصريفِ فعل ضجر - أضجرُ، تَضجرُ، يَضجرُ، نَضْجرُ إلخ، ثمّ إلى الأمر - اضْجرْ إلخ. وهكذا تواصل الأمر في حالةٍ سوداويّة من التّصريفاتِ. والآن، كما تعلمون، عندما يأتي وقتٌ ونَضْجرُ فإنّ السّبيل الوحيد هو الرّحيل. وهكذا رأت كِيتْ، وتركت بيت الدُّون (الذي يتمنّى المرء أن يعرفَ ما سيكون مصيره الكارثيّ من فرط شغفه بالأفعال الخارجة عن القاعدة.) بعد أن أخذت من رفِّ موقِده قيمةً من الفضّة أكثر قليلا من التي جبتْها من خالتِها. لكنّ الدّون أيضا كان قريبها، وكان يدِينُ

لها بشيكٍ من مصرفِه مقابل نتائج دراستها الميدانيّة. ففي النهاية، ليس لأيّ رجلِ الحقّ، وإن كان قريبا، في أن يُضْجِرنا دون مُقابلٍ.

من فيتوريا، قادها عتّالٌ إلى بلد الوليد[1]. ولحسن الحظ -هكذا بدا الأمر في البداية لكنه صار مختلفًا في النهاية- كان الملك وحاشيته في بلد الوليد، وتجمّعتْ هناك الكثير من الحشود والفرق العسكرية. انجذبت كاتالينا إلى واحدةٍ من هذه الفرق، وبدأت تستمعُ بهدوء إلى الموسيقى. ولكن بدأ بعض أشقياء الشوارع يتهكّمون على شكلِ ثوبها الذي حاكته في الغابة وألوانه الزّاهية (الأوغاد! يودّ المرء رؤية أيّ نوع من السراويل يمكنهم حياكته دون مقص جيد!)، ثم أخذوا يرشقونها بالحجارة. لم يكن هؤلاء الأنذال يعرفون سوى القليل عن ضحيّتهم. إنه واحدٌ من خمسة عشر كائنا في جميع أنحاء إسبانيا، ذكرًا كان أو أنثى، أهّلتهم الطّبيعة والسّجية والأنفة، لانتزاع ما في هؤلاء الأوغاد من تكبّر وغرور. هذا ما فعلَته على عجل، شجّت رأس أحدهم أو اثنين منهم بحجر حادّ، وجعلتْ دمَ بلد الوليد الفاسد ينزّ قليلًا. وقفَ بعض الدّرك بهدوء، وهم مثل رجالِ دركٍ كُثر أعرفهم في بلدي، لرؤية الغريب الوحيد يُهان ويُعنّفُ، وشعروا بأنّ واجبهم يُحتّمُ عليهم إلقاء القبض على الراهبة المسكينة بسبب الاعتداء العنيف، فسيقت أمامهم إلى مكان يشبه الطاحونة[2] حيثُ احتُجزت دون استجواب أو مزيد من التحقيق.

---

(1) بلد الوليد (ڤالادوليد) Valladolid: مدينة في شمال إسبانيا، أقام فيها ملوك قشتالة. تعتبر الآن عاصمة إقليم كاستيلّا ليون.

(2) كان السجناء قديماً يؤخذون إلى المطاحن لإدارتها بدفع دوّاساتها بأقدامهم.

لحسن الحظ، ليس للظلم أن ينتصر دائما، فقد شاهدَ فارس شابّ شجاع من النّافذة كلّ ما حدث من استفزاز، وأُعجب بسلوك كاتالينا، كيف أبدت صبرا في البداية وجُرأة في النهاية، فهرع إلى الشارع، ولحق بالدرك، ثم أجبرهم على إطلاق سراح سجينتهم، وشرح لهم ما أحاط بالواقعة من ملابسات، وعلى الفور عَرَضَ على كاتالينا عملا ضمن حاشيته.

كان رجلًا نبيلًا وثريًّا. أمّا العمل الذي عرضه عليها فهو «وصيفة شرفيّة»، ولأنه مركز لا يقلّل من شأن أحد، حتّى لو كان ابنة رجل نبيل، فقد قبِلتهُ بكلّ سُرور. قضّت كاتالينا هناك شهرًا سعيدًا. صارتْ ترتدي ملابس رائعة من مخمل أزرق داكن، حاكه خيّاط لم يسبق له أن عمل في غابة الكستناء. كانت هي والفارس الشاب، دون فرانسيسكو دي كارديناس، مسرورين وحظيَ كلّ منهما بثقة الآخر. وباختصار، لقد سار كل شيء على ما يرام. وفي إحدى الأمسيات -لحسن الحظّ قبل أن تغرب الشمس فكانت الأشياء مرئية - برأيكم، من كان يتقدّم جارّا خطاه إلى غرفة انتظار الفارس؟ كان ذلك التمساح ، الأب الضّخم الذي لم يظهر منذ خمسة عشر عامًا، ولن يعاود الظهور بعد هذه الليلة. لقد جاء محمَّلًا بدموع التماسيح المعدَّة للاستخدام حسبَ ما يقتضيه الحال، كأنّ عينيه محرّك صناعيّ ناريّ. تقدّم باتجاه كاتالينا، ولكنّه لم يتعرّف عليها لأسباب تتعلق بمرور الزمن وملابس الرجال التي ترتديها، فضلاعن الشفق. ومع ذلك، فبينما كان يستفسر عن الدّون الشابّ، خمّنتْ كيت أنّه

يتفحّص وجهها مشتبهًا فيها، كما لو أنه استشعر دم العائلة الذي يجري في عروقها. ولمداراة وجهها، تقدّمت لتعلن عن حضوره للدون فرانسيسكو، متمنيةً لو أنه يتلاشى وينبثق على شواطئ نهر النيل القديم، حيث يعيش أمثاله من التماسيح. انتظرت على باب غرفة الزوّار مثلما يقتضيهِ عملها، وراحت تخمّن سبب زيارته، وفي لحظة، سمعت الأب يتحدّث عن السبب الذي جاء من أجله. أخبر الدّون أنّ ابنته كاثرين هربتْ من دَيْر القديس سباستيان، ذلك المكان المفعم بالبهجة، وأنّها قابلته بجحود لا مثيل له بإقدامها على ذلك. أوه، يا للكنز الخفيّ الذي أنفَقَه على تلك الفتاة ! كم من الأموال التي لا أحد يعرفُ قيمتها بدّدها في ذلك الاستثمار ! كم عانى من الأرق خلال ليالِي طفولتها الطّويلة ! خمس عشرة سنة من القلق راحت هباءً منثورا من أجلِ نُضجها ! كانت شكوى كفيلة بتحريك قلب من حجر. ذرفَ النّبيلُ دموعًا غزيرة وهو يرثي حاله. و بمثل هذا السّمو أكّد حسّهُ الإسبانيّ النّبيل، حتّى إنّه ترفّعَ عن ذكر غطاء الرّأس الذي تركه لـ«قطّته» في دَيْر القديس سباستيان منذ خمسة عشر عامًا، وهو -وفقًا لما تعرفه القطّة نفسها- الذّكرى الوحيدة من الأب التي عرفها كلّ من كان في دَيْر القديس سباستيان. إلّا أن القطّة لم ترَ جدوى في مراجعة ذكريات الأب وتصحيحها، وأظهرت حذرها المعتاد وعزمها الذي لا يضاهى. فلم يبدُ، حتّى تلك اللحظة، أنها ستُعاد إلى الدّير، أو أن أباها يشكّ في لجوئها إلى هذا المكان. كان ذلك مثالا للشّؤم الاستثنائيّ الذي تتبّع كاتالينا خلال حياتها، ويا لدهشتها

(مثلما استنتجت الآن من كلامِ والدها) فلا أحد اقتفى أثرها إلى بلد الوليد، كما لم يكن لزيارة والدها أيّ علاقة بسفرها المشبوه في هذا الاتّجاه. كانت القضيّة مختلفة تمامًا. فالغريب في الأمر أنّ طريقها قادتها إلى المنزل الوحيد في إسبانيا الذي كانت تربطه علاقة رسميّة بسان سباستيان، فهذا الدَّيرُ الأخير، أسّستهُ عائلة الفارس الشاب. ووفقاً للتقاليد الإسبانية، فإن هذا الشاب (بصفته ممثّلا للعائلة) هو المسؤول عن مؤسسة الدَّيْر والكفيل بها.

كان الأب يستعطف الدّون ويلتمس معونته، لا باعتباره حاميًا كفيلًا بابنته، بل بصفته مسؤولًا عن الدّير بحكم منصبه. كان بإمكان كيت البقاء هناك في أمان لفترة أطول، ولكنّ ذلك من شأنه أن يضاعف العلامات التي تؤدي إلى اقتفاء أثرها، وربّما يتمّ اكتشاف أمرها في نهاية المطاف. وحينها فإنّ الدّون المسكين، بكلّ ما يميّزه من مُروءة، لن يستطيع حمايتها. رهيبٌ جدّا ذلك الثّأر الذي ينتظر مَن يُساعد راهبة على الفِرار، والأشدّ من كلّ شيء هو ارتكاب هذه الجريمة من قبل مفوّض رسميّ عن الكنيسة. ومع ذلك، فإنّ المجازفة الأكبر تكمن في التواري، فذلك سيكشفُ للدّون الشّابّ بأنّها الابنة المفقودة. وإذا كان لهذا أي تأثير فعلًا، فلا شيء في الوقت الحاضر يلزمه بملاحقتها، مثلما قد يكون الحال بعد بضعة أسابيع من ذلك.

جادلتْ كيت نفسها على نحو صائب (أجرؤ على قول هذا)، كما فعلتْ دائمًا. همسَ لها حذرُها دائما، بأنّها لن تأمن أبدًا حتى يفصل

المحيط الأطلسي بينها وبين القديس سباستيان. كانت الحياة بالنسبة إليها تعني خليج بسكاي. وكان الأمر متناقضا، فهي قد ركبت للمرّة الأولى متنَ هذه الحياة المتلاطمة تحديدا من خليج بسكاي. لكنّ المصادفة حكمت بعكس ذلك، أو فلنقل (كما عبّر عن ذلك رجل فرنسي ببلاغة في علاقةٍ بهذه القصة): «ليست المصادفة سوى اسم مستعار للرّبّ، في تلك الحالات التي لا يُظهر فيها إشاراتٍ عن وجوده علنا.» تسلّلتْ كيت عبرالدّرج إلى غرفة نومها. بسيطةٌ هي استعدادات السفر لأولئك الذين لا يملكون شيئا، فلا يضطرّون إلى حزْم أمتعتهم. كانت لديها مقدرة جوفينالية[1] على الترنّم بمرح في غابة مليئة باللصوص، فهي لم تكن تملك شيئًا لتخسره باستثناء قطعة من القماش لاستبدالها تتدلّى بخفّة تحت ذراعها اليسرى، تاركةً ذراعها اليُمنى تتحرّك بحرّيّة تحسّبًا للرد على أسئلة أي شخص بذيء. وبينما هبطت الدَّرَجَ خفيةً، سمعت التمساح ما يزال يبكي أحزانه إلى آذانِ الشّفق المتأمّلة، وإلى دون فرانسيسكو الطّيّب.

لم يكن من قبيل سلوك السيّدات اللطيفات أن تفعل كيت ما سأذكره الآن، فمن المؤسف أنّه لم يكن هناك أخٌ وصيفٌ مرِح، يستطيع الدّخول إلى الغرفة، مسلّحًا بقطع من البطاطس المشوية، ثم يتّخذ وضعا متأهّبا، ليحشو تلك القطع في فم التمساح الكريه. لكن، يا لها من مفارقة تاريخية! لم تكن هناك بطاطس مشوية في

(1) نسبة إلى جوفينال Juvenalis (60- 140م): شاعر روماني هجا رذائل وحماقات المجتمع في عهد الإمبراطور دوميتيان.

إسبانيا آنذاك[1]، والقليل منها فقط كان في إنجلترا. الغضبُ يستثيرني ويدفعني إلى قول أي شيء.

رأت كاتالينا آخر أصدقائها وأعدائها في بلد الوليد، فعلى الرغم من أنها أمضت القليل من الوقت هناك، إلا أنها اغتنمته جيّدا لتكوين عدد من الأصدقاء والأعداء على حدّ السّواء. كان هناك عدد ضئيل من الأشخاص في بلد الوليد تبرق عيونهم حقدًا عليها. ولو أن كل العيون المتحجّرة التي نظرت إليها في تلك المدينة، وهي تتجوّل في الشوارع أثناء الفجر، عرفتْ حالةَ الطّفلة المسكينة، أو أدركتْ في رؤيا مّا طبيعة الصّعوبات التي واجهتها، لذرفت الدّموع حتى يُلينها البكاء. لكن ما فائدة إهدار الدّموع على كيت؟ انتظروا حتى شروق الشمس في الغد، لتتأكدوا مما إذا كانت في حاجة ماسّة إلى الشّفقة أم لا؟ ماذا ينبغي على فتاة مثلها أن تفعل بعد أن تجد نفسها وحيدةً مع حلول الظلام في بلد الوليد، دون رسالة توصيةٍ بها، ودون أن تعرف أيَّ سببٍ، وجيهٍ أو ضئيل، يجعلها تفضّل شارعًا على آخر، ما عدا ما تعرفه عن ضرورة تجنّب شارع أو شارعين على وجه الخصوص؟ المشكلة الكبرى التي ذكرتُها، تحقّقتْ منها كيت وهي تمضي في طريقها، وحلّتها بما تقتضيه مثل هذه الظّروف، من دقّة وحرص. كان استنتاجها يتمثّل في أنّ أفضل باب تطرقه في مثل هذه الحالة، هو الباب الذي لا يحتاج طرقُهُ على الإطلاق، لأنه مُشرَعٌ أمام كُلّ

(1) جلب الإسبان البطاطس من أودية جبال الأنديز إلى أوروبا في منتصف القرن السادس عشر، وقد أحضرها الإنجليز إلى بلادهم في الوقت نفسه تقريبًا.

من يقصده. وخمّنتْ بأنّه وراء هذا الباب، لا يكون هناك ما يُسرق، وهكذا لا يُمكن أن يعتبرها أحدٌ لِصّة. أما في ما يتعلق بالسرقة منها هي، فليجّربوا ذلك إذا استطاعوا. وبناءً على هذه الأفكار، التي سيحاول بعض الخُصوم دحضها دون جدوى، عثرتْ على باب إسطبل. فتحته ودخلت. كانت هناك عربة فارغة في الداخل، بالتّأكيد، ولكن لا يُمكن وضع مثل هذه الأشياء في جيبكَ. وكانت هناك خمسة أحمال من القشّ، ولكن مِن كلّ ذلك لا تستطيع الفتاة أن تأخذ ما يزيد عن حمل حقيبتها، فربّما يُعتبر هذا مسموحا به في الأعراف السّائدة في إسبانيا ! كانت كيت محقّةً في صعوبة التّعامل معها كلصّ. أغلقت البابَ برفق كما فتحته. ارتمتْ على أقرب كوم من القش، بملابسها الرجاليّة، وعلى بعد أكثر من عشرة أقدام كان يستلقي بغّالان، يبدوان عفويّين وسعيدَيْن بما يكفي مقارنةً بالسّادة النبلاء في غرف نومهم الفخمة في بلد الوليد. ولكنّهما كانا جلفيْن يعانيان من الصّمَم بسبب أكل الثوم والبصل، ومواد مُريعة أخرى. وبسبب ذلك لم يسمعاها أو يعلما، حتى الفجر، بوجود مثل هذا الشّخص الجميل قربهما، لكنها كانت تعلم بهما وتسمع كلامهما. كانا يتحدّثان عن رحلة ستنطلق إلى أمريكا من أحد موانئ الأندلس[1]، بقيادة الدون فرديناند دي كوردوفا. كان هذا ما تحتاج إلى سماعه في ذلك الوقت. مع انتشار ضوء النهارهبّت من مكانها. لم تكن بحاجة إلى الزينة أكثر من الطّيور التي كانت تغرّد في الحدائق حينها، أو بأكثر

---

(1) أندلوسيا Andalusia: إقليم جنوب إسبانيا، عاصمته أشبيلية.

من البغّالين اللذين كانا رفيقين طيّبين وألقيا تحية الصباح على الصبي الوسيم دون أن يزعجاه بسبب استعماله لقشّهما دون إذن منهما.

ومع هذين الرجلين المغرمين بأكل الثوم، انطلقتْ كِيتْ. كان صباحًا قُدسيًا. وبينما كانت تغادر بلد الوليد مع العربات التي تلائم ذلك الفجر الذهبي، في غموض هروبها الشّديد، شعرت بأنّها لم تعد تهتمّ بالتمساح أو القديس سباستيان، أو تخاف من حَاميهِ، على الرغم من أنها فكرت في هذا الأخير بشيء من الرّقّة، بفضل ما أبداه لها من لطف شديد. لذلك كان تذكّرها له عادِلا. وصلتْ إلى الأندلس ببطء إلى حدّ مّا. ومنذ عدّة أشهر، كان عمرها ستّ عشرة سنةً، وفي الوقت المناسب للانطلاق في رحلة بحرية، ذهبتْ إلى ميناء سانت لوكار[1] حيث ملتقى الراحلين إلى البيرو. وكان جميع القادمين موضع ترحيب على متن السفينة، وبالأخصّ شابّ في عمر كيت. وما أن وصلت حتى تم اختيارها كوكيل للربّان، ثم أبحرت سفينتها دون إبطاء. وبعد أن اجتازت كيب هورن[2] توجّهت إلى ساحل البيرو، باتجاه پايتا[3]، ميناء الوصول. وغير بعيد عن هذا الميناء واجهت السفينةُ عاصفةً ألقت بها إلى شاطئ صخريّ مرجانيّ. كان الأمل ضعيفًا في وصول السفينة إلى مستقرّها لأنها خرجت عن

---

(1) سانت لوكار St. Lucar: مدينة وميناء على ساحل قادس، أصبحت نقطة انطلاق رئيسية لرحلات الاستكشاف الإسبانية المتجهة إلى الأرض الجديدة.

(2) كيب هورن Cape Horn: الجزء الجنوبي من جزيرة هورن في تشيلي، يلتقي عنده المحيطان الأطلسي والهادئ.

(3) بايتا Paita: مدينة بيروفية في إقليم بنفس الاسم على المحيط الهادئ.

السيطرة، ولم يكن متوقّعا أن تصمد لأربع وعشرين ساعة. في ذلك الوضع، وهم يرون الموت أمامهم، لكم أن تتصوّروا ما فعلته كيت، وأرجو أن تتذكّروا ذلك من أجلها، عندما تقوم بشيء آخر قد يستثير غضبكم. أنزلَ البحّارة قارب النجاة الطويل، وعبثًا حاول الرّبان الاحتجاج على هذا الفرار من سفينة الملك، والتي مايزال بالإمكان تسييرها إلى الشاطئ وحفظ حمولتها. كان الطاقم بأكمله قد تخلّى عن الربّان. ولكن يمكن القول حرفيًا، إنّ الاستثناء الوحيد لم يكن رجلًا، لأن كيت الشّجاعة، كانت البحار الوحيد الذي رفض ترك الربّان وسفينة الملك. أما الآخرون فقد جذّفوا نحو الشاطئ آملين أن يصلوا. لكنّ نصفَ ساعة كانت كفيلةً بإخبارنا قصةً أخرى، ففي ذلك الوقت تحديدًا غطّت عاصفةٌ برقيّة كلَّ المكان، وكشفَت في ظلام الليل حركةَ القارب وهو ينتفض كحصان، مجتازا شاطئا صخريّا، قاذفا بالبحارة الذين اختفوا في الحين تحت الأمواج المتلاطمة. كانت ليلةً مكفهرّة بالنسبة إلى ممثّليْ جلالته الكاثوليكية. لا يمكن لأعظم الفلاسفة أن ينكر بأنّ إسطبل البغّالين في بلد الوليد يُعادلُ عشرين سفينةً من هذه، بالرّغم من أنّ الإسطبل لم يكن مؤمّنًا ضدّ الحريق، وأنّ السّفينة كانت مؤمّنةً ضد البحر والرياح من قبل رجلٍ لم يفكّر طويلا في مصيرها. لكن ما جدوى الجلوس والبكاء؟ لم يكن ذلك من طباع كاتالينا على الإطلاق. فمع حلول الفجر، كانت تشتغل حاملةً فأسًا في يدها. عرفتُ ذلك من مذكراتها، قبل أن أصلَ إلى هذا الجزء، وشعرتُ حينها -كما لو أنني قرأتُ ذلك

من قبل- بأنّه مع كلّ نهار جديد، سنجدُ كيت تعمل كعادتها بكل جدّ. كشتبان أو فأس، سروالٌ أو طوْف، لا فرق، كل ذلك متساوٍ في نظرها.

بدا الربّان يائسًا، على الرّغم من إخلاصه لعملِه، فلم يقدّم لها أيّ مساعدة وهي تعدّ طوْف النجاة، مع أنّ كلّ العلامات كانت تُشيرُ بوضوح أنّ عليه فعل شيء مّا، وأن يُخلي السّفينة بأسرع ما يمكن. أصبح طوْف كيت جاهزًا، فشجّعت القبطانَ قائلةً بأنّه سيصلح لهما للتّشبث به وهما يسبحان، إذا لم يحملهما معا. وبينما كان كلّ شيء ينتظر بدايةً، والسفينة تترقّبُ ترنّحها الأخير قبل أن تودّع ملك إسبانيا، قامتْ كِيت بشيء سيعارضه العاجزون عن إطلاق الأحكام الصّحيحة. كانت تعلم بوجود صندوق محمّل بالقطع الذّهبية، خصّصه ملك إسبانيا لحالات الطوارئ التي قد تواجهها الرحلة. حطّمته بفأسها، وأخذت ما قيمته مائة جنيه إنجليزي. حفظته جيدًا في كيس وسادة ثم قفزت في الطّوف. وعلى الرّغم من أن ما أخذته ليس جزءًا من حطام السفينة لأنّه لن يطفو، فهو بالتّأكيد، وفقا للقانون البحريّ، شيء ممّا يطرحه البحر، ومن حقها الاحتفاظ به. سيكون من قبيل الوساوس أن نتوهّم أن للبحر أو لأسماك القرش، الحقّ فيه أكثر من فيلسوفٍ، أو فتاةٍ رائعةٍ أثبتت قدرتها على الكتابة بشكل متقنٍ جدًّا، دون أن نذكر قدرتها على قطع العديد من رؤوس أعداء الملك في المعارك واستعادة رايته، كما سنعرف لاحقًا. لا يمكن لشخص عاقل أن يتردّد في فِعل نفس

الشيء تحت ظروف مماثلة، وعلى متن سفينة إنجليزية، على الرغم من أن قائد الأميراليّة[1] يجب أن ينال ما يستحق من تقدير. أُلقي الطوْف في البحر وقفزتْ كيت وراءه، ثم توسّلت الربّانَ أن يلحق بها. حاولَ ذلك، وعندما أراد تقليد خفّة حركتها اصطدم رأسه بالصاري، وغرق في البحر مثل الرّصاص. تشبّثتْ كيت بالطوْف، وانجرفت رويدًا رويدًا نحو الشاطئ. كانت قد استنفدت قواها، فاستلقت هناك مجهدة لساعات طويلة، إلى أن أحياها دفء الشمس من جديد.

عندما استوت، شاهدتْ شاطئًا مقفرًا يمتد في اتجاهين. لا طعام يمكن تناوله، لا شيء تشربه، ولحسن الحظّ أنّ البحر كان قد ألقى بالطوْف والمال على مقربة منها، لكن لا شيء من المؤن وَجَدَ طريقه إلى الشاطئ. ماذا يمكن أن تفيدها الجنيهات الملقاة بين أعشاب البحر والنّوارس؟ وضعت المال في جيوبها، ووجدت ما يكفي من القوة للنهوض والسّير. لكن، أين الأمام وأين الخلف؟ عرفتْ من حديث البحّارة أن پايتا يجب أن تكون في الجوار. ولأنها ميناء فلا يمكن أن تكون داخل البيرو، بل خارجه على الساحل. فإذا واصلت السّير على الشاطئ إلى أبعد ما تستطيع، فقد تصل إلى پايتا في النّهاية مع حلول اللّيل. ولكن عليها أن تعرف أولًا اتّجاهها الصّحيح، وإلا فإنها قد تمشي حتّى يتمزّق حذاؤها، وتجد نفسها قد ابتعدت ستة آلاف ميل في الاتّجاه الخاطئ. كان ذلك وضعًا صعبا، فقط بسببِ عدمِ توفّر علامة دالّة. ومع ذلك، عندما يفكّر المرء في

(1) الأميراليّة Admiralty: السلطة المشرفة على قيادة القوات البحرية.

حظّ كِيت السّعيد، وكيف ألقى بها المحيط وحدها دون غيرها من البحّارة على الشّاطئ الأمريكي، بعد رحلة طويلة جدًا، مع مكسبٍ بمائة جنيه في محفظتها ربحته من هذه الرحلة، تتولّد لديه قناعة بأنها لن تخمّن خطأً أيّ اتجاه يجب أن تسلك. أخذت عُملةً نقديّة من جيبها ورمتها في الهواء وعادت لتلتقطها: طُرّة أم نقشٌ؟ لكن هذا النّوع من التكهّن كان يُعتبر حينئذ كُفرًا في مملكة المسيح، وأقرب إلى الممارسات اليهودية والوثنية في تبصّر المستقبل الغامض. إذن خمّنتْ ببساطة. وسرعان ما حدث شيء مّا، قد لا يؤكّد اختيارها، لكنّه يساعدها في معرفة ما إذا كان خاطئًا. بنظرةٍ خاطفة نحو الشاطئ، رأتْ برميلاً من البسكويت جرفته الأمواج من السفينة. البسكويت هو أفضل شيء أعرفه، لكنه الأسرع تلفًا، ويودّ المرء استشارة في أمر محيّر هنا: لماذا يتلف تمامًا إذا مسّه الماء، فيأخذ حياته، ويتركه جثّة متحلّلة[1]؟ أفطرتْ على هذه البقايا التّالفة. بالرّغم من أنّ غنيمتها كانت أسوأ بكثير من غنيمتي، فالبحار كانت تغذّيني دائما أشياء طازجة، بينما كانت غنيمتها هديّةً من المحيط الهادئ. ولأنها كانت حاذقةً دائمًا، فقد صرّت القليلَ من بسكويت الملك الكاثوليكي، مثلما أخذت في السّابقِ بعضا من ذهبه. ولكن في مثل هذه الحالات، يبزغ سؤال يعتمد في حلّه على الإلمام بالطب والجبر: إذا حملتَ الكثير من الأشياء، فإنّ المؤن المصبّرة، قد تؤخركَ عدّة أيام عن الوصول إلى مؤنٍ طازجة. ومن ناحية أخرى، إذا حملت

(1) باللاتينية في الأصل caput mortuum: أي «رأس ميّت»، بمعنى بقايا تالفة لا جدوى منها.

القليل، فقد لا تصل أبدًا! اختارت كاتالينا أوسط الأمور. وقبل فجر اليوم التّالي وجدت نفسها تدخل پايتا، دون أن تعترضها عقباتٌ أثناء سيرها.

أولُ شيءٍ تفعله شابّة تمرّ بظرفٍ صعب، حتى وإن صادف أن كانت شابًّا، هو تعديلُ هندامها ليبدو جميلًا. كانت كيت جاهزة دائمًا لذلك، إذا تغاضينا عمّا فعلته في غابة الكستناء. آنذاك، لم يكن الرّجل الذي ذهبت إليه خياطًا، بل شخصا يوظّفُ الخيّاطين ويزوّدهم بما يحتاجون إليه من موادّ. كان اسمه أوركويزا[1]، وهي حقيقة لا تهمنا كثيرًا الآن[2]، إلا لأنها تتعلّق بعض الشيء بكِيت. لكن لسوء حظها، كان الأمر مختلِفا هذه المرّة في بداية هذه المرحلة الأمريكية المديدة، فالسيد أوركويزا، في العالم القديم كما في الجديد، كان محتالًا، بل محتالًا بجِحًا. الآن، استعادت كِيتْ نضارتها بفضلِ ما خصّها به البحر من بسكويت. ومع القليل جدًا من الكبرياء أو الوعي بالذات، بدت شخصًا رائعًا بالفعل. وعندما ارتدت قيافتها الجديدة لتبدو ضابطًا شابًا في الجيش الإسباني، فقد مثّلت هيئتها الفارس[3] الإسباني كما يجب أن يكون. (إذا زار القارئ مدينة اي لاشابيل يوما، وكان مهتمًا بفتاةِ البراري، قد يرغب في البحثِ عن بورتريه لها في تلك المدينة، وهو الوحيد المعروف أنّه أصليٌّ. إنّه

---

(1) أوركويزا Urquiza: اسم إسباني أصله الاسم الباسكي «أوركيزا» Urkiza ويعني شجرة البتولا.

(2) في الأصل: «في عام 1847».

(3) بالإسبانية في الأصل: كابالادور caballador.

موجودٌ في مجموعة السّيّد سمبلار. لفترة زمنيّة طويلة كان يُعتقد أنّ البورتريه اختفى في مكان مّا في إيطاليا. ولكن منذ اكتشافه في اي لا شابيل، فإنّه تمّ التّخلّي عن هذا الاعتقاد. وهناك دافعٌ قويّ للاعتقاد بأنّ هناك بورتريهاتٍ أخرى لها في مدريد وروما، نظرا للأهمّية الكبيرة التي كان يوليها لتاريخها رجالٌ ذوو مكانةٍ عالية في الجيش أو الكنيسة. وتعود هذه البورتريهات إلى ستّ عشرة أو عشرين سنةً من التاريخ الذي وصلنا إليه الآن، 1608).
من الغريب أن مثل هذا المظهر وهذه المكانة، مكّنا أوركويزا من التّفكير في جعل كيت كاتِبةً لديه. وعلى كلّ حال، كان يرغبُ في ذلك، لأنّ لديها خطّا جميلا فعلًا. أما الأكثر غرابة فهو أنها قبلت عرضه. ولعل موافقتها نشأت أساسًا من صعوبة التحرّك في البيرو في تلك الأيّام، فبالكاد كانت السّفن تجلب المؤن إلى محطّة پايتا، ولم يكن من السهل الوصول إلى فيالق الجيوش الملكيّة، بينما يجب القيام بشيء مّا في الوقت نفسه لتوفير لقمة العيش. كانت لدى أوركويزا مؤسستين تجاريتين، واحدة في تروخيّو[1]، وهي التي يديرها بنفسه، والأخرى في پايتا ووافقت كيت على إدارتها. وبوصفها فتاة رصينة، كما عهدناها دائمًا، فقد طلبت معلومات محدّدة لترشدها في واجباتها الجديدة. وبالطّبع كانت تنظر إلى الحياة على نحوٍ عادل.

كانت صفتها كفتاةٍ عمليّة لا تتوافق مع شخصيّتها التي قدّمتها بها قبل أن تترك سان سباستيان، أي أثناء عدّ حبات الخرز في سانت

(1) ترخيو Trujillo: مدينة تقع شمال غرب البيرو.

سباستيان، التّدرّب على الأفعال اللاتينية الخارجة على القاعدة في فيتوريا، العمل كحاجب في بلد الوليد، خدمة صاحب الجلالة الإسباني أثناء عبور كيب هورن، ومواجهة العواصف وأسماك القرش قبالة سواحل البيرو، والآن بعد أن شرعت تعمل محاسبًا لدى تاجر القماش في پايتا. كانت تعليمات السيد أوركويزا موجزة وواضحة ومضحكةً أيضًا. ولكنها أدّتْ مع ذلك، وهو أمر غريب، إلى نتائج مأساوية.

كان هناك مَدِينان لمتجر أوركويزا، (إنّهم كثيرون فعلا، ولكنّ اثنين منهم يستحقان منه تنويهًا مُحبّا)، مع الاحترام لمن تَشاجر معهم. أوّلهما سيّدة جميلة جدًا. وكانت القاعدة تقتضي منحها سُلفةً «غير محدودة»، بل غير محدودة تماما. كان هذا أمرا واضحا جدًا. أما الزّبون الثاني المفضّل للسيد أوركويزا فكان شابًّا، وهو ابن عم تلك السيدة الجميلة، اسمه رييس. كان الشابّ يحظى لدى السيد أوركويزا بنفسِ المرتبة العُليا التي تشغلها السيدة الجميلة، ولكن على الجانب العكسيّ من المعادلة. والقاعدة هي ألا يُمنح أي سُلفةٍ على الإطلاق. لم تجد كيت صعوبةً في هذه الحالة أيضًا، وعندما تعرّفت على السيد رييس، وجدتْ أنّ المُتعة تتزامن مع العمل. لم يكن السّيّد أوركويزا دَقيقا في وضع القاعدة أكثر من كيت في تنفيذها. لكن في الحالة الأخرى كان هناك بعض الشكّ. فعبارة «غير محدود»، في القانون الإسباني كما في اللغة الإسبانية، أشبه ما تكون بعبارة «عش لألف سنة». وتُسمع العبارة الأولى كثيرا في مكاتب الضّرائب، وربما

تُعتمدُ هناك دون انتباه. لذلك كتبتْ كيت إلى ترخيّو، معبّرة عن مخاوفها الكبيرة، تطلب الحصول على معلومات أكثر وضوحا. كان هذا أمرا إيجابيا. إذا طلبت السيدةُ محتويات المتجر بالكامل مثلًا، فستُخصم من حسابها فورا. لكنّها لم ترسل في طلب ذلك، بل بدأتْ تُظهر رغبتها في رجل المتجر. منذ أن استقرّت عينها على الشابّ النّضر القادم من بيسكاي، وهي تُفكّر في اتخاذ كِيتْ عشيقًا لها.

تابعتْ كيت هذا بقلب مثقل. وفي الوقت الذي حظيت فيه بصديق أكثر لطفا ممّا أرادت، تأكّدت من عدوّ إضافيّ لم ترده أبدا. لم تستطع كيت تخمين ما فعلته لتُسيء إلى السيد رييس، إلا في ما يتعلّق بالسُّلفة، ولكنها مع ذلك نفّذت التّعليمات. أمّا السّيّد رييس فكان يرى أنّ هناك طريقتين لتنفيذ الأوامر، ولكنّ الإساءة الأولى لم تكن مقصودةً من كيت. ولأنّ رييس كان مرشّحًا لخُطّة المحاسب، وهو ما لم تكن تعرفه كِيتْ، فقد سعى إلى الحفاظ على معادلة أوركويزا بالضبط كما كانت في ما يتعلّق بالسُّلفة، ولكن باستبدال وضعه بوضع السيدة الجميلة، أي بوضعها على الجانب السّلبي، وانتقاله بالطّبع إلى الجانب الإيجابي. وهذا الترتيب، كما تعرفون، لا يمثّل أي فرق في حسابات أوركويزا.

على هذا النحو سارت الأمور، إلى أن قَدِمَت إلى پايتا فرقةٌ متنقّلة من الممثّلين، وكان من المتوقّع حضور كيت، بوصفها رجلًا إسبانيًّا من أرستقراطيي پايتا. وحضرت بالفعل، كما حضر رييس الماكر. جلسَ متعمّدًا حَجْبَ رُكْح المسرح عن كيت. أما هي التي لم يكن

شيء من التنمّر يخالط طبيعتها، وكانت كائنا لطيفًا ما لم تُثر الإهانة دمها البيسكانيّ، فقد طلبتْ منه بلباقة أن يتزحزح قليلًا. ردّ ريس بأنه لا يستطيع إجبار المحاسب على فِعل ذلك، ولكن المحاسب يستطيع إجباره بجزّ رقبته. وفي تلك اللّحظة استيقظ النّمر الكامن في أعماق كاتالينا دفعةً واحدة، وانتفضتْ في وجه رييس ووضعت الانتقام نصب عينيها لولا تدخّل مجموعة من الشبّان للفصل بينهما. في اليوم الموالي، بينما نسيتْ كيت، المستعدّة دائما للنسيان والمغفرة، ما حدث من شجار، مرّ رييس، وبصقَ على النافذة، ووجّه إليها إيماءات أخرى مهينة، ففارَ دمُها الإسبانيّ مرة أخرى. وهكذا هرعت إلى الخارج، والسيف في يدها، وبدأت مبارزة في الشارع، سرعان ما انتهت بغرز سيفها في قلب رييس. فور هذه الواقعة، دبّ النشاط كالعادة في الشرطة التي سرّها أن تُنزل العقاب بالجاني. وفجأةً وجدت كيت نفسها في سجن منيع، بأمل ضئيل في مغادرته، هذا إذا لم يكن الإعدام مصيرَها.

كان للقتيل أقرباء نافذون جدًا في پايتا، طالبوا بتطبيق العدالة. ولكنّ عمدة المدينة، بعد أن رأى في هذه الواقعة فرصة ضعيفة للحصول على ما يُرضيه من رشاوى، شعر بأنّ من واجبه التّرفّع عن الفساد هذه المرّة. مع ذلك، يعرف القارئ أنّ من بين أقارب المتوفّى، كانت تلك السيدة الجميلة، التي اختلفتْ كثيرًا عن ابن عمها في مشاعرها تجاه كيت، كما اختلفت عنه في حجمِ سُلفتِها من السيّد أوركويزا. لم تتردّد كيت في بعثِ رسالةٍ إليها عن طريق

السجّان بعد أن رشته بعملة ذهبية من نقود الملك الإسباني. ربما كان ذلك غير ضروري، فالسيدة كانت فطِنةً، واستدعت أوركويزا من تروخيّو.

بطرقٍ مّا لم يُعلن عنها بوضوح، وبدفع مبالغ مناسبة، تمّ تهريب كيت من السجن مع حلول الظلام، وإخفاؤها في منزل جميل في الضّواحي. ولأنّها تعرف تماما وضعها القانوني، فقد اتّخذت قرارها. وهكذا كانت مُضطربة، وخائفة من الفشل، وقبل موعد العشاء تفهّمت كلّ شيء. أبلغ أوركويزا محاسبه -أي كيت- بإيجازٍ أنّ عليه الزّواج من السيدة الجميلة. لماذا؟ لأنّ أوركويزا، بعد أن تحدثَ لساعات مع عمدة المدينة، وهو رجل سيئ السمعة ومُكابر، وجدَ من المستحيل إقناعه بالاستماع إلى صوت العقل، وإطلاق سراح السجين. وهكذا جاء اقتراح تسوية الزّواج هذه. ولكن كيف يُمكنُ للعدالة أن تتصالح مع جريمة المحاسب المؤسفة في حقّ السيد رييس، بالزّواج من ابنة عمّ المرحوم وجعلها تحبّه وتحترمه وتطيعه مدى الحياة؟ بالطّبع لم تر كيت مخرجا لها وفق هذا المنطق. وأضاف أوركويزا:

«هراء يا صديقي، أنت لا تفهم، فالقضية كما هو واضح جريمة قتل، والعقوبة مُعلّقة. ولكن إذا تزوجتَ في منزل القتيل، تصبح الجريمة عندئذ شأنًا عائليًّا بسيطًا، ويكون الجميع هادئين ومرتاحين. ما الذي يستطيع العمدة فعله بشأن هذا؟ أو حتّى عامة الناس أيضًا؟ لا شيء، والآن، دعني أقدّم إليك العروس».

قُدّم العشاء في تلك اللحظة، وإثر ذلك مباشرة دخلتِ العروسُ. لم يُلاحظ كثيرا استغراق كِيت في التّفكير ولم يُشر إليه حتّى، بل أُرجع ذلك بكلّ أدب إلى الخوفِ الطّبيعيّ للسجين، وحالة حرّيته الحرجة في ظلّ المراقبة. في الواقع، لم تكن كيت أبدا في مثل هذا الوضع من قبل. لم يكن الاضطراب الذي انتابها ليلة وداعها لسانت سباستيان يمثّل شيئًا أمام ما يحدث الآن. لأنها حتى لو فشلت حينذاك، كان بإمكانها إصلاح الأشياء. كان عليها فقط المشاهدة والانتظار. أمّا الآن، على طاولة العشاء هذه، فلم تكن تخشى طبيعة الخطر المحدّق بها، أكثر مما تخشى الحقيقة. ذلك أنها إذا لم تهرب بأيّ طريقةٍ قبل نهاية هذه الليلة، فإنّها لن تتمكّن من الهرب مدى الحياة! وعلى الرغم من أنّ التّضليل المتعلّق بجنسها، لا يعتمد على أيّ دافع يرتبط بهؤلاء الناس أو يعنيهم حتّى، فإنه سيكون موضع استياء كبير. وستعتبرُ السيدة الجميلة الأمر سخرية منها، وسيفقد أوركويزا فرصته في التخلّص من حبيبةٍ متعجرفة. ووفقًا لما يسود في هذه البلاد، عرفت كِيتْ أنها ستُغتال في غضونِ اثنتي عشرة ساعة.

كان بإمكان المجتمعين على مائدة العشاء التريّث في البحث عن القرارِ الأنسب لتجنّب أسوأ ما يمكن أن يحدث. أمّا كيت فقد قلّبت القضيّة على جميع وجوهها في بضع دقائق، واتّخذت قرارها. وهكذا صارت مستعدّة للمحاكمة بين لحظة وأخرى. وعندما قالت السيدة الجميلة إنّ مشقّة السجن جعلت كِيتْ تتوق إلى الرّاحة، وافقتها على ذلك ونهضتْ على الفور. شُكِّل موكبٌ للاحتفاء

بالضّيف الجليل، ومرافقته بكل أبّهة إلى غرفة نومه. ونظرتْ كيت إلى هذا الموكب تماما كما كانت ستنظر قبل أيّام إلى الموكب الذي تتوقّعه بعد استدعاءٍ من العُمدة. في المقدّمة، ركضتْ خادمةٌ بعيدا لتفسحَ لهم الطريق. أمّا أوركويزا، الأشبه بباشا يرتدي جلبابًا طويلًا - أوركويزا المانح لنوعين من السُّلفة، «غير محدودة» و«لا شيء على الإطلاق»- فقد جاء حامِلا شمعتين مضيئتين، واحدة في كلّ يد. كان يرغبُ فقط في سماع قرع الصّنوج والطبول المُعبّر عن فخره القشتاليّ. وبعدها جاءت العروس قبل قدوم المحاسب بوقت قليل، وكانت تختلس النظر إليه مداراةً، وتبتسم في وجهه بهدوء. وأخيرًا، من أقصى الموكب جاء السّجينُ، عزيزتنا كِيتْ - الراهبة، الوصيفة، الرفيقة، المحاسبة، المجرمة، المدانة - ولهذا اليوم فقط، وبرغبة استثنائية: العريسُ المنتخب.

كان رأي كيت ثابتًا: إذا دخلتْ لوهلةٍ أيّ غرفة نوم دون مخرج واضح لها، فمصيرها سيكون مثل ثور يقاد إلى المذبح. في الخارج، يستطيعُ الثّور الدّفاع عن نفسه بقرنيه. ولكن في الداخل، مع عدم وجود مساحة للالتفاف، سيكون مقيّدًا ومكمّمًا. نقّلت نظراتها بحذر في كلّ ركن، مثل صقر، ثابتٍ، على الرغم من القلقِ. قبل الدّخول إلى غرفة نوم، كانت مصمّمةً على استكشافها من المدخل، وفي حالة الضرورة، تبدأ القتال مرّة واحدةً، فتلك هي الفرصة الأفضل في النّهاية، بما أنّ بقية الفرص سيئة فعلاً. وأخيرًا وصل الموكب إلى مدخلِ غرفة النوم، وانسحبت الخادمة إلى الخلف.

لمحة واحدة من كيت كانت كافية لتكتشف خلوّ غرفة النوم من النوافذ، وبالتالي انعدام أيّ منفذ للهرب. لقد كانت نيّة الغدر جليّة، ورغم أنها لم تكن مسلّحة، إلا أنها تأهّبت للمقاومة.

دخل السيد أوركويزا أولاً وهو يصرخ:

«انفخوا الأبواق! دقّوا الطبول!».

لم تكن هناك نوافذ، كما نعلم، لكنّ تعثّرًا طفيفًا في خطوات السيّد أوركويزا الاحتفاليّة أظهرَ درجًا يؤدي إلى أسفل الغرفة. وفكّرت كيت:

«هذا الدرج يناسبني أفضل».

رأت طريقة فتح باب غرفة النوم، ولم تُفوّت أيّ تفصيل، بما في ذلك المفتاح الذي كان قد تُركَ في القفل. في تلك اللّحظة، قامت السيدة الجميلة التي كانت تفاصيل المنزل مألوفة لديها، بلعب دور المرشدة اللطيفة، فمدّت يدها الرشيقة لتوجيه كيت أثناء نزول الدرج. بدا كأنها تدعوها إلى الرقص، وفي اللحظة نفسها، استجابتْ لها كيت بحركة راقص الفالس. ألقت بذراعها خلف خصر السيدة، وسارا بخطوات متتالية أمام السيد أوركويزا، تاجر الملابس والخرداوات. من ثم، وبسرعة البرق، استدارت كيت وأغلقت الباب على الدائن والمدينة في مصيدة الفئران التي أعدّاها لها.

فرّت الخادمة المرافقة لهم مذعورةً، فقد كانت تعرف بالفعل أن المحاسب قد اقترف جريمة قتل، وأنه لن يفكّر طويلًا قبل ارتكاب جريمة أخرى. هكذا أصبح الخروج من ذلك المكان سهلًا.

خرجتْ وصارت حرّة من جديد في تلك الليلة المضاءة المرصّعة بالنجوم. ولكن ما الطّريق التي يجب أن تسلكها؟ إذا لم تتمكّن من الهرب قبل الصّباح، فلن تكون المدينة بأكملها سوى مصيدة فئران بالنّسبة إليها، لا تقلّ سوءًا عن مصيدةِ السيد أوركويزا. ولوهلةٍ أدركت أنّ البحر هو فرصتها الوحيدة، فهربت إلى الميناء. كان كلّ شيء ساكنًا. لم يكن هناك حرّاس. قفزتْ إلى أحد القوارب. كان استخدام المجاذيف خطرًا إذ لا تستطيع إخفاء أصواتها بأي طريقة. ولكنّها تمكّنت من رفع الشّراع. دفعت القارب بخطافٍ، ثم سرعان ما أبحرت باتجاه مدخل الميناء مدفوعة بنسيم خفيف مؤاتٍ. وما أن شعرت أنّ صعوبات هروبها قد انتهت، استلقت وغفت على الفور من شدة التعب.

عندما استيقظت كانت الشمس قد ارتفعت منذ ثلاث ساعات أو أربع. كان كل شيء على ما يرام. ولأنّها لم تكن تعرف شيئًا عن الإبحار، فقد انتابها القلق، إذ أدركت بعد نومها الطويل، ربما لسبع ساعات أو ثمان، أنّها لم تعد ترى اليابسة، ولم تستطع تخمين المسافة التي قطعتها أثناء إبحارها ولا في أي اتجاه ! ولكنّها رأت أنّ هذا ليس سيئًا في كلّ الأحوال، وهي تفكّر في الأعداء الذين تركتهم وراءها.

المشكلة أنّهُ لم يكن هناك شيء للإفطار، ولا حتى قطع البسكويت التّالف. ولكن أكثر من قلقها من هذه المشكلة، كان الشعور الذي انتابها بشأن ما يمكن أن يحدُث مُستقبلاً. ولكن،

هل تشعر بالخوف؟ أبدا، فمثلما يصفّر البحّارة لاستدعاء الرّيح المؤاتية، فإن كاتالينا أيضا إذا صفّرت لأي شيء بكل طاقتها فلابدّ أن يأتي. وكما خاطب قيصر الرّوم ربّان ديراشيوم، فقد خاطبت قاربها الخائف (ولو كان مقدّرا له أن يفنى قريبا): «قاربُ كاتالينا، هو كلّ ثروتها». وفي الأثناء، بينما كانت محتارةً بشأن أفضلِ طريق بحريّ تسلكه، وقانعة في نفس الوقت إلى أنّ القارب سينتهي بها إلى الشّاطئ، فقد واصلتْ إبحارها أينما سيّرتها نسائم المحيط الهادئ اللّطيفة. «كل شيء ورائي على ما يرام»، قالت في نفسها، أمّا الأفضل فهو أن تقول لنفسها قريبا: «سيكون كل شيء أمامي على ما يرام». وبعد ساعة أو ساعتين قبل غروب الشمس، عندما أصبح العشاء بالنّسبةِ إليها، أهمّ موضوعٍ للتّأمّل، بدأت تظهر أمامها شيئًا فشيئًا ملامح سفينة كبيرة في الأفقِ. كان من المؤكّد أنّ أيّ سفينةٍ تظهر في تلك السنوات وعلى خطوط العرض تلك، هي سفينةٌ إسبانيّة، وبعد ستين عامًا من ذلك ستكون على الأرجح سفينةَ أحد القراصنة الإنجليز، وهو ما كان سيمنح اتجاهًا آخر لِطاقة كِيتْ. استمرّت تلوّح بمنديلها، منديل آخر غير منديلِ التّمساح الذي كُتِب عليه «هناك: أنا 1592»، وكان من الممكن ألاّ يُلاحظها أحد.

شيئًا فشيئًا اقتربت السّفينة من كيت، ثم انعطفت نحوها. كان الظلام مخيّما عندما وجّهت كِيت القارب إلى أسفل السفينة، وحينها رأت شيئا شدّ انتباهها. كان رسمًا على مؤخرة قاربها، لم تستطع تبيّنه جيدًا، لكنها أدركت أنّ له علاقة بالميناء الذي خلفته وراءها. كانت

ترغب الآن في قطعِ أيّ صلةٍ تربطها بوغد مثل أوركويزا الذي لابد أنه توصّل الآن إلى نشر صورتها في مختلف أرجاء البيرو عن طريق مراسلاته التجارية. ولكن كيف تستطيعُ تحقيق ذلك؟ كان الظلام مخيّما، ووقفت، كما تقفُ إستونيّة أحيانا، وبدأت تهزّ قاربها الصغير من جانب إلى آخر، حتّى امتلأ ماءً قدرَ ما أمكن، لتثبت أنّ القارب يغرق وأنها تكاد تهلك معه. رمت نفسها في الماء دون اكتراث، وسبحت نحو جانب السّفينة ببهجةٍ لا تُماثلها بهجتها عندما كانت تُنادى «قطّة»، وتسابِقُ راهباتِ سان سباستيان نحوها. قفزت على ظهر السّفينة وأخبرت الملازم الأوّل عندما سألها عن مغامراتها، كلّ الحقيقة التي يستحقّها رجلٌ في رتبة الأميرال.

كانت السفينة الملأى بمجنّدي الجيش الإسباني الجُدد قاصدةً كونثيبثيون[1]، ورأت في هذا المصير شيئا من التكرار، أو الإعادة التذكاريّة لما مرّت به عرضًا في مغامراتها. تم تجنيدها بين المتطوعين الجُدد. وعند الوصول إلى الميناء، ضابط عسكري شابّ وأنيق كان أوّل شخص خرج من الشاطئ. عرفت من اسمه ورتبته أنّه شقيقها، رغم أنّها لم تره قبل ذلك. كان موقعه مميّزًا في الخدمة العسكرية، لكونه سكرتير الحاكم العام، بالإضافة إلى رتبته كضابط في سلاح الفرسان، وكانت مهمته على متن السفينة هي التفتيش عن المجنّدين وفحصهم، وأثناء قراءة أسمائهم انتهى لقب أحدهم باسم «بيسكاني» (أي من بيسكاي). تقدّم الشاب المهذّب نحو

---

(1) كونثيبثيون Concepcion: مدينة في تشيلي على ساحل المحيط الهادئ.

كاتالينا، فأخذ يد المجنّد الشاب بلطف وهو يشعر بأن اللقاء بأبناء البلد على مسافة بعيدة أشبه باللقاء مع أحد الأقارب، وسألها بمنتهى العاطفة عن بعض ذكريات الصّبا القديمة. ما حدث بعدها كان يفيضُ بعاطفةٍ مقدّسة كما لو أنه مشهد لقاء عائلي، يعود إلى العهود الباتريركيّة. كان الضابط الشّاب الابن الأكبر في البيت، غادر إسبانيا عندما كانت كاتالينا تبلغ ثلاث سنوات فقط. ولكنه على نحو مّا، تذكّر كيف رأى كاتالينا، القطّة البريّة الصغيرة، في دَيْر القديس سباستيان. وهكذا بدأ يسألها:

«هل يعرف المجنّد عائلته، آل دي إراوسو؟».

«أوه نعم، الجميع يعرفونهم».

«هل عرف المجنّد كاتالينا الصغيرة؟».

ابتسمت كاتالينا وهي تجيب بأنّها تعرفها، وقدّمت وصفًا حيّا لتلك الصغيرة المسكينة والمتّقدة حماسا، حتى جعلت عيني الضابط تلمعان رقّةً، وجعلته متأكّدا من أن المجنّد لم يكن بسكانيّا مزيّفا. وفي الواقع، إذا لم تقدّم كيت، كما تعلمون، وصفًا دقيقًا لـ«القطة»، فمن يستطيع إذن؟ وانتهت المحاورة بإصرار الضابط على أن تجعل كِيت إقامتها إلى جواره. كما قدّم خدمات أخرى لأخته المجهولة، فضمّها إلى فَوجِه الخاصّ في سلاح الفرسان، وفضّلها على الآخرين بطُرق عديدة تسمح بها سُلطتُه. لكنّ الشّخص الذي خدم كِيتْ كثيرا في النّهاية، كان كيت نفسها. كانت الحرب مستعرة آنذاك مع السكّان

الأصليين في تشيلي والبيرو، وقامت كيت بواجباتها دون تهاون. ومع مضي الوقت، وفي معركة بورن[1] الحاسمة، اتّسع المجال لفعل شيء أكبر. عمّ الخراب في أسطولها، قُتل مُعظم الضّبّاط وتم الاستيلاء على الراية. جمعت كيت زُمرةً صغيرة من الجُنود، ولاحقوا رتل الهنود الذين هربوا بالرّاية. هاجمت الرّتل وشاهدت جميع الجنود في زُمرتها يُقتلون، ولكنها نجحت في العودة بالرّاية، على الرّغم من إصابتها بجروح في وجهها وكتفها. أسرعت على ظهر جوادها نحو الجنرال وأركانه. ترجّلت، ثم سلّمت الراية، وأغميَ عليها، ودموع الفرح التي ملأت عينيها تحجبُ رؤيتها أكثر من الدّم الذي يلطّخ وجهها. وقف الجنرال ولوّح بسيفه فوق رأسها بإعجاب شديدٍ، ورقّاها إلى رتبة ألفيريز[2] أو حامل الراية، بتفويض من ملك إسبانيا وجزر الهند. كِيتْ الجميلة! كيت النبيلة! كم وددتُ لو لم يفصل بيننا قرنان من الزّمن، لكنتُ عندئذٍ قبّلتُ يدكِ الجميلة. كان لكيتْ تقدير سليم في معرفة خطر الكشف عن جنسها، أو حتّى علاقتها بشقيقها، فسطوة الكنيسة لا ترتخي أبدًا، وهي لا تُسقط «حقّها»، إلا إذا اختارت ذلك بإرادتها. ولو كُشف أمر الراهبة فالمؤكد أنها ستعزل على الفور من سلاح الفرسان وستُنزَل من سرجِ حصانها. لكن كاتالينا، ولسنواتٍ عديدة، كان لديها الصّرامة الكافية لمقاومة

---

(1) معركة بورن Puren: إحدى معارك الإبادة التي نفّذها الإسبان ضد شعب مابوتشي Mapuche (يعني الاسم بلغتهم: أهل الأرض)، وهم يتوزعون الآن بين تشيلي والأرجنتين.

(2) الفيريز Alferez: رتبة في الجيش الإسباني كانت تعادل رتبة الملازم.

دوافع الرّهبنة التي تُلهمُ أحيانا هذه الثقة. ولسنوات أخرى، وهي الأهم في حياتها لأنها طوّرت شخصيتها، عاشت دون أن تكشف عن نفسها كضابط لامع في كتيبة الفرسان تحت إمرة شقيقها. لكنّ الحزن الأكثر مرارة في كامل حياة كيت البائسة كان بسبب حدث مأساوي (أو الحدث الأكثر مشهديّة، وإن لم يستطع المرء إثبات ذلك)، وهو الحدث الذي أنهى علاقتهما الطّويلة. دعوني أقول كلمة اعتذار عن أخطاء كيت المسكينة. نحن جميعا، أنا وأنت، أيها الوقت، نرتكب أخطاء. عفوا، ولكن أنت، حسبما أعرف، قدّيسٌ، بينما أنا لست كذلك، على الرغم من قربي للغاية من ذلك. لقد ارتكبتُ، على مدى فترات طويلة من حياتي، كثيرا من الأخطاء، وبالتالي أفكر في التسامح مع العديد من الظروف التي تشفعُ لهذه الفتاة المسكينة.

لقد ورثت الجيوش الإسبانية في ذلك الوقت، منذ أيام كورتيز[1] وبيثارو[2]، الكثير من الذكريات الساطعة عن البسالة الحربية، وعن أسوأ الأخلاق كذلك. فأن نفكر قليلًا في إراقة الدماء، أو الشجار والقتال والمجازفة والسّطو، كلها أمور تنتمي إلى أجواء المعسكرات وبلادتها وتقاليدها القديمة، تكون مجبرا على القيام بها في حالة الدفاع عن النفس. ولكن إلى جانب كل أسس الشرّ هذه، كان الجيش الإسباني يمارسُ فوضى أكبر في حربه ضد

(1) هرنان كورتيز Cortez (1485- 1547): مغامر إسباني هزم إمبراطورية الآزتيك وأخضع شعبها.

(2) فرانشيسكو بيثارو Pizarro (1478- 1541): مغامر إسباني هزم إمبراطورية الأنكا وأخضع شعبها.

المتوحشين، الدمويين واللاّمؤمنين. لا تفكر أبدًا، أيها القارئ، أتوسّلُ إليك، في قتل إنسان. إن كلمة «قتل» متناثرة في كل صفحة من سيرة كيت الذاتية، لكن لا ينبغي قراءتها في ضوء فهمنا المعاصر للكلمة. ومع ذلك، ماذا لو أن الرجل الذي قتَلَتْه كان...؟ صهٍ! هذا مؤسف، من الأفضل أن نسرع بتجاوزه في بضع كلمات. بعد سنوات من هذه الفترة، تناول ضابط شاب في يوم من الأيّام طعام العشاء مع كيت، وطلب منها أن تكون اللاّعب الثّاني في مبارزة بينهما. كانت مثل هذه الأشياء تحدث كلّ يوم. ومع ذلك، كان لدى كيت أسباب جعلتها ترفض هذا الطلب. لكنّ الضّابط، وهو يغادر متجهّمًا، قال إنه إذا قُتل (وكان يعتقد ذلك) فإنّ موته سيُلقى على كاهل كِيتْ. طبعًا، لم تكن وجهة نظره سديدة، لا فصاحته أو منطق تفكيره كان كذلك، ولكنّ كيت، لسبب مّا، تراجعت عن قرارها، وتم تحديد موعد المبارزة عند الساعة الحادية عشرة ليلًا، تحت جدران دَيْر. لسوء الحظ، كانت الليلة مظلمة على نحو غير معتاد، فكان على المتبارزين ربط مناديل بيضاء حول مرفقيهما، حتى يتم تمييزهما. وأثناء التحامهما جرح كل منهما الآخر بشكل قاتل. وبناء على ذلك -وفقًا لتقليد مألوفٍ لدى الجنود الإسبان، ولكنّه امتد قرنا كاملا بين مواطني بلدنا، كما يعرف القارئ بالتّأكيد، أصبح نصيرُ كلّ متبارزٍ مُلْزَمًا شرفيًّا بالثأر لصاحبه. وكالعادة، كان القدر في صفّ كيت، فقد اخترق سيفها جسد خصمها بالكامل، قبل أن يسقط هذا المجهول ميتًا، مطلقا صحية مروّعة مع آخر نفَس:

«أيها الوغد، لقد قتلتني».

كان ذلك صوت شقيقها.

انتبه رهبان الدّير الذي وقعت هذه المبارزة تحت ظلاله الصامتة، إلى صوت التحام السيوف والصيحات الغاضبة للمتصارعين، فخرجوا حاملين المشاعل لكنهم عثروا على ضابط واحدٍ على قيد الحياة، من بين الأربعة المتبارزين. كان كل دَيْر أو هيكلٍ كنسيّ يوفّر حقّ اللّجوء لفترة قصيرة. ووفقًا للعرف، حمل الرهبانُ كيت فاقدةً وعيها إلى حرم المعبد. ظلّت هناك لعدة أيام. وبعد ذلك، زُوّدت بحصان وبعض المؤن، وتُركتْ حرةً تستطيع الذهاب أينما شاءت. ولكن أي سبيل يجب أن تسلكه هذه الهاربة التّعسة؟ استدارت على نحو لا شعوري وسارت باتجاه البحر.

كان البحر هو الذي أحضرها إلى البيرو، ولعلّ البحر أيضًا سيحملها بعيدًا. كان البحر هو ما أراها للمرة الأولى هذه الأرض وما تحمله من آمال ذهبية، وهو الذي جنّبها ما تحمله هذه الأرض أيضًا من ذكريات مخيفة. في مناسبتين كان البحر هو الذي نجّاها من المهالك. البحر إذن -إذا اختار ذلك- سيستعيد دميته المفقودة.

(2)



تبعتْ بطلتنا المسكِينة الساحلَ لثلاثة أيام، حتى لم يعد حصانها قادرا على الحركة. وبحثًا عن المأوى والعشب استدارت لتدخل دغلًا قريبًا، ومع اقترابها منه سمعت صوتًا ينادي:

«من هناك؟».

أجابت كيت:

«إسبانيّ، من أنت؟ أنا صديق».

كانا جنديّين فارّين يتضوّران جوعًا. شاركتهما كِيت ما لديها من مؤونة. وعند سماعها خطتهما التي تقضي بالمرور على كورديليراس[1] وافقت على الانضمام إليهما. كان هدفهما هو البحث عن نهر إلدورادو[2] الذي تترقرق مياهه على امتداد رمال ذهبية، وحصاه من الزمرّد. أما هدفها فكان ألا تتعرّض للمطاردة، وأن تستعدّ جيّدا لبدء فصل جديد من الحياة ينسيها الماضي.

---

(1) كورديليراس Cordilleras: سلسلة من جبال متوازية وهضاب متداخلة وتضاريس أخرى في الأنديز.

(2) دورادو Dorado: اعتقد الأوروبيون في القرن السادس عشر بوجود مكان بالغ الثراء اسمه إلدورادو.

بعد بضعة أيام من التسلّق المتواصل والتعب، وجدوا أنفسهم في منطقة يغطيها ثلج دائم. عندما يحلّ الصيف سيكون غير ذي جدوى على مملكة الصقيع هذه، مثلما سيكون على قبر أخيها. لا نار، غير نار الدّم في الأوردة يمكنها أن تظل متقدةً في مثل هذا المناخ المعزول. أمّا إضرامها هنا فهو سرّ لا يعرفه إلا السكان الأصليّون. ومع ذلك، بإمكان كيت أن تقوم بكل شيء. إنها الفتاة التي أنحازُ لها الآن في كل الظروف وهي تسعى إلى عبور كورديليراس، سواء وُجدت فتاة فعلت هذا قبلها أم لا. أراهنك الآن، أيها القارئ، على جرايتك التي ستودعها في مكتب البريد، أنّ كيت ستدرك الجانب الآخر، عكس ذينك الجنديين. أمّا الحصان، هذا إن ظلّ، فلن يبقى له الكثير ليتباهى به.

جمع الثلاثة ما وجدوه عند سفوح الجبال من توت برّي وجذور صالحة للأكل، وكان الحصان مفيدًا جدًا في حمل هذه المؤونة التي سرعان ما استُهلكت عن آخرها. لم يتبقّ بعدُ شيء لحمله، فلم تعد هناكَ حاجةٌ إلى الحصان كدابّة للحمل. بل إنه بعد فترة وجيزة، صار عاجزا عن حمل نفسه، وكان من السّهلِ تخمينُ متى سيدرك الكورديليراس، بعد أن صار يتراجع ثلاث خطوات مقابل خطوة واحدة إلى الأمام. في ضوء هذا الوضع، اجتمع مجلس الحرب وقرّر الجيش الصغير ذبحَ الحصان. وبالرغم من أنّه فردٌ من الرّحلة، لم يكن يحقّ له أن يُصوّت، ولو كان له ذلك لكانت النتيجة ثلاثة أصوات مقابل واحد، أي أنه، في مطلق الأحوال، ما كان ليقف

في وجه الأغلبية! هكذا تم تقطيعه إلى أرباع، وما فاجأني، أنّ ربعا من الغنيمة كان من نصيبه. لقد ذكرني هذا بواحدة من الطرائف الكثيرة لضبّاط البحرية، الذين يسألون أيّ واحدٍ منهم يبدو عابِسا، إذا كان ينوي الزواج والتقاعد، مقابل الحصول على معاشٍ سنويّ يقدّر بأربع باوندات وربع، أو أربع باوندات ونصف، تُدفع له أرباعا، بطريقة تُزعج المُحاسب، فهو لا يستطيع القيام بذلك ولو بمساعدة العُملاتِ النّقدية الصغيرة. وهكذا وفقا للقواسم غير المكتملة، فإنّ أربعة أجزاء في ثلاثة أشخاصٍ تعتبر غير متكافئة تماما مثل تصريفِ الجنيه إلى كورونات. ولكن، في النهاية كان هذا كلّ ما استطاع الحصان أن يوفّره. لم يكن بإمكانهم الحصول على ملح أو سكر، ولكن الصقيع كان معقِّمًا طبيعيًّا، وحفظ لحم الحصان كما يُحفظ المشمش أو الفراولة. وُضعت بعض شرائح اللحم على النار التي أضرمت في الأعشاب والأوراق الجافة. أما بالنسبة إلى الشرب فقد كان الثلج متاحا. كان من شأنِ هذا أن يُحييهم. لكن الجنديّين الفارّين المسكينين كانا يرتديان ملابس خفيفة، ولم يكن لديهما قلب كاتالينا الحارّ، وشيئا فشيئا تراخيا. وبذلت كيت قصارى جهدها لتشجيعهما، فالرحلة اقتربت من نهايتها، ولم تكن تفصلهم سوى نصفِ ساعةٍ قبل الوصول إلى ملجئهم الأخير. وقبل ذلك، شاهدوا مشهدا غريبا، نادرا ما يمكن رؤيته في أماكن أخرى، باستثناء التجاويف المرتفعة للكورديليراس. وصلوا إلى كتل صخرية متداخلة، كبيرة وصغيرة، تبدو سوداء بشكل كثيف على جوانبها المتعامدة. كانت تنبثق في ذلك الامتداد الثلجي الشاسع. وعلى

قمّتها، صعدت كيت ونظرت حولها، فرأت -ويا لبهجتها في تلك اللّحظة!- رجلًا يجلس على نتوء صخري واضعا بندقيّته إلى جانبه. وصاحت بفرح على رفيقيها، ثم هرعت إلى الأسفل لتبلغهما بالخبر السار. كان الرجل صيّادًا كما ما يبدو، وربما جاء يترقّب نسرا، والآن سيحظون ببعض الرّاحة. شعّ وجه أحد الرجلين بفرح مفاجئ، ثم نهض متحفّزًا لمواصلةِ السّير. أمّا الآخر فكان غارقًا أمامها في نوم قاتل يبثّه الصقيع في أطرافه كأنه رسول الموت الرحيم، لكنه سمع في ما يشبه الحلم بشائر الراحة، وبمساعدة صديقه، نهض مترنّحا. فكّرت كِيتْ أنّ الوصول إلى الصيّاد لن يستغرق أكثر من ثلاث دقائق، وقد حفّزتهم هذه الفكرة، وتحت إرشاد كيت التي تفحّصت الأرجاء بعين بحّار، سرعان ما تخلّصوا من متاهة الصخور وأصبح الرجل على مرأى منهم. لم يغادر مكانه ولم يسمع وقع أقدامهم الخفيف على الثلج. ولأنهم كانوا وراءه وهم يقتربون منه فإنه لم يستطع رؤيتهم. حيّته كيت، ولكنه كان مستغرقًا في تأمّلاته، فلم ينتبه. لم يتحرك أو يدر رأسه، وبدأت كيت بالتفكير في أن عليها أن توقظ رجلًا آخر يغطّ في النوم، وإذ دنتْ منه لمست كتفه، وقالت:

«هل أنت نائم يا صديقي؟».

نعم، كان نائمًا نومًا لا صحو منه. وما أن أخلّت لمسة كيت الخفيفة بتوازن الجثة حتى تهاوت متدحرجةً على الثلج، ورنّ الجسد المتجمّد مثل إسطوانة حديد جوفاء، بوجه أزرق متعفّن وفم مفتوح، وأسنان مروّعة غطّاها الجليد بطبقة بيضاء وابتسامة مخيفة على الشّفتين. أنهى

هذا المشهدُ المرعبُ مقاومة الرجل الأضعف، فسقط ميتًا على الفور. أمّا الآخر فقد بذل جهدًا أكبر إلى درجة أن الرّعب الذي أصابه، كما اعتقدتْ كيت، حفّزه أكثر. لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد جعلته نوبةٌ من التشنج القويّ ينهار أيضًا، وبدأ دمه يتجمّد، فسقط أرضًا. وبعد لحظاتٍ مات هو الآخر دون مزيد من المقاومة. رحل الجنديان الفارّان المسكينانِ، ممدّدين على الثلج، كأن الواجب العسكري انتقم لنفسه من استهانتهما. من المؤكد أنّ للملوك العظماء أذرعا طويلة، وعلى الخدم أن يكونوا دائما تحتَ أمرِ أسيادهم. ما علاقة الثّلج والجليد بهذا؟ حسنا. لقد جعلا نفسيهما خادمينِ لملك إسبانيا، وقضيا على جنديين فارّين من جيشه على قمة الكورديليراس، بأكثر فاعليّة من كلب مطاردة، أو رصاصة قنّاص إسباني.

الآن تقف كيت وحدها على قمم جبال الأنديز، في عزلة مخيفة. وحدها مع ضميرها المعذّب. للمرة الثانية تقف في عزلة ضارية، بعد عزلتها الأولى العميقة كمياه المحيط الهادئ، لكن ضميرها كان مطمئنًّا آنذاك. والآن، هل تبقّى من يمكن أن يساعدها؟ مات حصانها والجنديّان، والآن لم يعد بإمكانها الحديث إلاّ مع الله. سنعرف أنها كانت تتحدّث إليهِ على امتداد هذه البراري الثلجية الشاسعة، وقد كان بالفعل يهمس إليها. حالة كيت هي بالضبط حالة «البحار العجوز» في قصيدة كولردج[1]. لكنكَ أيّها القارئ،

---

(1) صامويل كوليدج S. T. Coleridge (1772 – 1834): شاعر إنجليزي، تمثّل قصيدته الطويلة «البحار العجوز» بداية الأدب الرومانسي في بريطانيا.

ربّما تكون من بين العديد من القراء اللاّمبالين الذين لم يفهموا تمامًا ما كانت عليه تلك الحالة. احتملني قليلًا لأوضّح لك ذلك، وإلا فإنك ستدمّر حكاية البحّار، لأنه بجهلك ما فيها من عواطف، قد تفقد نصف مجوهراتِ جمالِها.

هناك ثلاثة قرّاء لـ«البحار العجوز»: الأول مباشر بما يكفي ليتخيّل كلّ صور ومجازات رؤى البحار بوصفها تجربة معاشة، وهو أمر مستحيل. كل ذلك يذوب، بالنسبة إلى هذا القارئ، في حكاية خيالية لا أساس واقعيّ لها. أما القارئ الثاني فهو أكثر حكمة من ذلك، لأنه يعرف أن الصور والمجازات لا أساس واقعيّ لها، وأنها صور هذيان محموم، يُرى بالفعل، ولكن ليس بوصفه واقعًا خارجيًّا. أُصيب البحّار بحمّى وبائيّة أدّت إلى موت جميع رفاقه، ولم ينج سواه. يختفي الهذيان هنا، لكن الرؤى التي طاردت الهذيان ظلّت. «نعم»، يقول القارئ الثالث، «بقيت الرّؤى. ظلّت موجودة على نحو طبيعي، لأن الحمّى رسختها في عقله كوشوم لا يمكن إزالتها. ولكن كيف بقيت في عقله كحقائق مقدّسة؟ لقد تلاشى الهذيان، فلماذا لم يتلاش مشهده، باستثناء بعض الرّؤى الحزينة؟ لماذا خيّم كل ذلك الجنون على عقل البحّار، وقاده كقايين أو كيهوديّ تائه آخر، ليعبر من أرض إلى أرض كأنه الليل، وفي فترات غامضة، يعذّبه حتّى يراجع خطاياه، ولو كان ذلك بالثّمن الصّعب لـ«حرمان الأطفال من اللّعب، والمسنّين من الجلوس في ركنٍ قرب المدخنة». كما يقول فيليب سيدني؟ هذا الجنون، كما يكتشفه

القارئ الثالث، ينهض من تربة أعمق من أي عاطفة جسدية. إنّ له جذورا في حزنِ التكفير عن الخطايا. مريرٌ هو الحزن الذي تسببه يقظة الضمير، عندما يُكتشفُ بعد فوات الأوان، عمْقُ الحبّ الذي داسته الأقدام! ذبح هذا البحّار الكائن الذي لم يحبّه أحد مثله على وجه الأرض، وفعل ذلك في ظلام معتقده الموحش، لإنقاذ إخوته البشر من عَقبةٍ متخيَّلة. ومع ذلك، وبسبب هذا العمل الوحشي ذاته، جلب هو نفسه الخراب على رؤوسهم. طاردته آلهة الانتقام، وقضت بعقابه من خلالهم، هو الذي أخطأ عبر من سعى، خطأً، إلى إنقاذهم. تلك الروح التي ترعى مقدسات الحب ملاكٌ قويّ، ملاكٌ غيور، وهذا الملاك كان:

«من أحبّ الطّائر، وأحبّ الرّجل
وهو من رماه بِقوسه
هو من تبع رامي السِّهام القاسي، في بحارٍ صامتة ونائمة
لعشرين مترا في عمق الماءِ تبعه
عبر مملكاتِ الضّبابِ والثّلج.

وهذا الملاكُ الغيور هو الذي لاحق الرجل في ظلام منتصف النهار، في المحيطات المحتضرة والهذيانات، وأخيرًا، بعد أن تعافى من المرض، لاحقهُ في عقله المضطرب».

مثل هذا الإثم اقترفت كيت، ومثل هذا العقاب أيضا اقتفى أثرها. فهي كالبحّار العجوز ذَبَحَتْ الكائن الوحيد الذي أحبّها على وجه الأرض بأسرها. وبسبب هذا الإثم أيضا وقعت في فخّ

الصقيع والثلج، ثم سرعان ما ستقعُ في فخّ الهذيان. وإذا نَجَتْ بحياتها، فإنها ستقعُ في فخّ قلبها الذي لا يهدأ.

كان هناك عُذر الظلام المخيّم حولها، وعُذر ظلامٍ آخر يخيّم حول البحّار. ولكن مع كل الأعذار التي تقدّمها الأرضُ وظلامها، فمن المرارة بِمكانٍ في كل لحظة من لحظات الحياة، سواء كنّا يقظين أو حالمين، أن ننظر إلى الوراء، إلى تلك اللحظة المميتة التي طعنّا فيها قلبًا كان مستعدًّا للموت من أجلنا. كان الظّلامُ رحيما بِكيتْ في شيء واحد، وهو أنّه حجبَ عن ضحيّتها إلى الأبد رؤية اليدِ التي قتلته.

في مثل هذه العزلة الكاملة، عادت أفكارها إلى أول لقاء بينهما، وتذكرتْ بحُرقةٍ كيف أن أول عبارة سمعتها من شقيقها الذي قتلته، بمجرّد أن وطئت الشواطئ الأمريكية، كانت عن «القطّة» التي لم يرها منذ زمن بعيد، وكيف أن كلماتها أثّرت في الشاب الشجاع، وهي تروي له عن تلك الفتاة الصغيرة القلقة منذ اثنتي عشرة سنةً. تذكّرت كيف تأثّر عندما بثّت الحياة في ذكرياته الحميمة عن أخته الصغيرة عبر وصفها، فذكّرته بجمالها الأشبه بظبيٍ طَلا[1]، ومَلَلِها الأشبه بملل السنجاب وجعلته يضحك بابتهاج. تذكّرت كيف أنه لم ينكر، بل اعترف على الفور، أنه ببساطة لم يلمس أو يقبّل أو يلعب مع تلك النبتة البريّة الصّغيرة، لأن دَيْر سانت سباستيان احتضنها بضيافته الكئيبة. وتذكّرتْ كيف لقيتْ، من خلاله هو فقط، كلّ ترحيب في المعسكر وصارت أهلًا للتكريم. ولكنها

(1) الطّلا: صغير الظبي.

كانت هي السّبب في جعل هذا الأخ الكريم والمحب يفارق الحياة. توقفتْ، استدارتْ كما لو أنها تبحث عن قبره، فلم تر سوى براري الثّلج المروّعة التي اجتازتها. التفتت حولها، كان الصمت يخيّم على الأرجاء، تماما كما تكون المناطق الاستوائيّة في عزّ الظّهيرة. صمتٌ مخيف أقرب ما يكون إلى صمت المقابر. كانت هذه الأخيرة عند أسفل جبال الأنديز كما عرفت ذلك، وهي أيضا عند قممها كما رأتها جيّدا. وبينما هي تحدّق متسائلةً، استقرّت عيناها على جثتيْ الجندييْن الفارّيْن، وفاجأتها فكرة خاطفة: هل كانت مثلهما، تنفّذ حكمًا على نفسها دون وعي؟ هاربةً من نقمة متوقّعة إلى نقمة لا ترحم؟ ذعرت من هذه الفكرة، ثم استدارتْ: لا أحد يتبعها. ارتعدتْ كيت للمرة الأولى في حياتها ثمّ بكتْ. ولم تكن تلك المرة الأولى التي تبكي فيها. بكتْ أقلّ بكثير من المرّة الأولى. أحنت ركبتيها، وشبّكت يديها للصّلاة. كانت تلك المرة الأولى التي تصلّي فيها مثل الراهبات، فلم يعد هناك من أمل سوى الصلاة.

اسمحوا لي هنا أن أتوقف قليلًا كي أغيظ أحدهم. هناك رجل فرنسي أساء تقدير كيت بكل أسف، ناظرًا إليها من مكبّرات أوبرا باريسية، قائلًا بخصوص تدوينها عن الصّلاة في مذكّراتها، إنّها بالفعل كانت تصلي للمرة الأولى. لا أعتقد ذلك. أنا أحبّ كيتْ هذه، ملطّخة بالدماء كما هي. كما لا أستطيع أن أحب امرأة لم تحنِ ركبتيها شكرًا أو رجاءً. ومع ذلك، فلكل منّا الحقّ في آرائه. ولكن من أغضبني ليس أنت، أيها الفرنسي، يا عزيزي، بل شخص آخر يقف

وراءكَ. أحبّكَ، أيها الفرنسي، كما أحبّ مواطنيك، لما يميّزكم من بهجة احتفالية، ولكنّي لا أتصالح مع طيشكم وتعلّقكم بدنيويّات أبديّة تؤدي إلى التجمّد، وانتشار البثور بسبب الصقيع الذي يشبه صقيع طبقات الهواء العليا في قمم جبال الأنديز. أنتَ تتحدثُ عن كيت لأنك مستعدّ دائمًا للحديث عن النساء بسهولة هي نتاج غريزة شكّ طبيعية وسخرية من جميع الحقائق الخفيّة. ومن ناحية أخرى فأنت شخص متمدّن بما فيه الكفاية قياسًا بكاتالينا، و«ولاؤك» (كيفما كان) متوفّر دائمًا لخدمة امرأة في أقرب وقت. لكنني أرى خلْفك شخصا أسوأ، متعصّبًا ومتجّهمًا، وهو متزلّف دينيّ يسعى إلى استرضاء الدائرة المحيطة به بالامتعاض من آثام لا تشبه تلك التي ارتكبها هو. ضدَّ هذا الشخص يجب أن أقول كلمة واحدة من أجلِ «كيت» للقارئ المتسرّع جدّا. هذا الوضيع يفتح النّار على كيت تحت غطاء «كذبة»، وما لم يتنحَّ عن الطريق سأرديه بطلقة. في دستور المجتمع المدني هناك كذبة، ضرورة لارتكاب الأخطاء، تضلّلنا في تحديد نسب الجريمة. هذه الضرورة المجرّدة تدفع الإنسان لارتكاب العديد من الجنايات، ثم تعاقبه عليها بوصفها أشنع الجرائم، ولهذا يعلّمه حسّه السّليمُ التعامل معها على أنها الأخفّ.

هذان الهاربان المسكينان، مثلا، هل كانا بالضّرورة دون عذر؟ ربما استُغلاّ بِظُلم، ولكن في أوقات الحرب الحرجة، ودون جعلِ الأشياء أقلّ وطأةً، لا بدّ من إطلاق النار على الجندي الهارب من أداء واجبه، ولا شيء يبرّر له ذلك. وكما في أقسى أيّام المجاعة، فإنّنا

نطلق النار (للأسف ! نحن مجبرون على إطلاق النار) على الرجل الذي يُضبطُ وهو يسرقُ مخازن المؤن من أجل إطعام أطفاله الذين يموتون جوعا، بالرّغم من أن مثل هذه الجريمة بالكادِ تُرى في عين الله. الحمقى فقط يعادلون بين تقييمهم هم للخطيئة، ومعيار العقوبة الإنسانيّة. والآن، إن «صديقنا» المتعصّب الخبيث، الذي يفتري على كيت، يستغلّ الميزة التي يستمدّها، لسببٍ مّا، من التقدير الاجتماعي المفرط للعنف. إنّ الأمن الشخصي هو الهدف الرئيسي للوحدة الاجتماعية، ولهذا فإنّ علينا أن نستنكر جميع أشكال العنف التي تعادي المبدأ المركزي لهذه الوحدة. أجل، نحن ملزمون بتقييمه، وفقًا للنتائج الكونيّة التي ينزع نحوها، ونادرا جدّا، وفقًا للظروف التي ينشأ منها. وهكذا ينشأ نوع من الرعب تجاه تلك الفئة من الجرائم المبالغ فيها. فلسفيا، تترجم أخلاقيات مركز الشرطة نفسها لا إراديا في أخلاقيات الدين. لكنّني أقول إن المتعصّب المنافق لا يكتفي بهذا فقط، أي بالتعسّف الجائر ضدّ كيت، وإساءة استغلال مزيّة التحيّز المشوّه للمجتمع. هناك أمر آخر، فهو عندما يشيحُ بنظره قليلًا على نحو لا يرى فيه الجانب الواضح من شخصية كيت، يستحيل أن يفهم نزعتها الحماسيّة في الدّفاع عن جميع الحقوق بالعنف. وبمقارنتها بقدرات الدّين عامّة، فهي أكثر موهبةً منه بألف مرّة. من المستحيل أن نكون نبلاء في المطلق، دون أن تكون لدينا نقاط تواصل عديدةٌ مع الدين الصحيح. إذا أنكرنا ذلك فنحن، دون شك، نفتري على الدين ونستغلّه. لقد كانت كيت نبيلة في أشياء كثيرة، ولم تأخذ أسوأُ أخطائها شكلَ خداع أو مصلحة

ذاتية. كانت شجاعة وكريمة ومتسامحة، ولم تكن تضمر أي خبث، كما كانت مُفعمةً بصفةِ قول الحقّ التي يحبها الله في الرجل والمرأة على حدّ سواء. كَرِهَت المتملّقين والمرائين. أنا أكرههم، أكرههم أكثر من أي وقت مضى نيابةً عنها، ولكم أتمنى لو كانت هنا الآن، لتصفعَ وجهَ ذلك الشخص الذي جرحها وأساء إلى اسمها. وعودةً مرة أخرى إلى المناسبة التي بدأ منها هذا الاستطراد القصير، أي إلى السؤال المطروح من الرجل الفرنسي، عمّا إذا كان من المحتمل أن تُصلّي كِيتْ تحت أيّ ظروف أخرى غير تلك التي تنطوي على خطر بالغ: أقول، نعم. إنّ العنيفين لا يختارون دائمًا أن يكونوا كذلك، بل الظّرفُ يفرض عليهم ذلك. لم تمكّن الظروف كيتْ سوى من أبسط الوسائل لتحقيق آمالها، ومن المؤكد أن هذه الآمال كانت تنحو دائما إلى السلام والسعادة الروحيّيْن طالما كانا ممكنين. السّحب العاصفة التي خيّمت عليها في المعسكرات انقشعت فوقها في لحظاتٍ، كاشفةً عن أزرقَ هادىء. لقد كانت دائما تتوق إلى الرّاحة التي لم تجدها في المعسكرات أو الجيش، ومن المؤكد أنها دمجت بين ذلك التّوقِ وبين خطط أخرى أو أحلام يقظة (حليفتها دائما) تحقّق فيها الرّاحة، مع بعض العون المستمد من ذلك الدين النقيّ الذي تعلّمت أن تحبّه وتوقّره بعمق، في سانت سباستيان، عندما كانت طفلة صغيرة إلى أن بلغت مرحلة الصّبا.

دعونا الآن ننهض من هذا النقاش حول كيت ضدّ المُفترين عليها، كما تنهض كيت نفسها من الصلاة، ونتأمّل بالتزامن معها،

طبيعة تلك الأرض الرهيبة التي تترامى مباشرة أمامها وما تشي به من وعود. فيمَ يجب التفكير الآن؟ تمنّيتُ لو كان لدينا مِزواة[1] هنا، وشاقولا[2]، وأدوات أخرى تُجيبُ عن بعض الأسئلة المهمة. لا يمكن ذلك، فعبر التّأمّل، إذا كان للمرء أُمنيةٌ تستطيعُ تحقِيقها جنّية طيّبة، وبمُساعدةِ أيّ كان، فمِنَ المُستحيلِ إرسالها لتُحضِرَ شاقولا، فلا أحد يتمنّى أشياء تافهة. لا أستطيعُ تحميل الجنّية مُهمّة كهذه: بل سآمر المخلوق الطّيّب ألاّ يُحضر الشّاقول، بل نقّالة من الزّجاج الصّلبِ، ويحضر معها خمسين حمّالا شارِبا، كيلا يشعروا بالبرد. إنّ ما يدعو إلى الاهتمام أساسا في هذه اللحظة، أو لنقل: الصّعوبة الرئيسية حقًّا، أو «السؤال المفتوح» الذي يثيره هذا الوضع، هو التأكّد ممّا إذا كان الصعود قد انتهى أم لا؟ ومتى يبدأ النّزول؟ أم قد بدأ الانحدار في الحقيقة منذ فترة طويلة؟ طبيعةُ الأرض في تلك السّلاسل المتوالية التي يمكن إدراكها بالنّظر، لا تُظهر شيئًا، لأن تموّجات مستوى الأرض وتعرّجاتها تمتدّ لأميال وأميال، فتربك كل من يراها ويريد معرفة ما إذا كان عبورها سيكون صعودًا أم هبوطًا. أو لعلّه لم يكن أيّا منهما، لا هذا ولا ذاك، ومن المحتمل، في الواقع، أن كيت كانت تتنقّل لبعض الوقت على امتداد مُنبسطاتٍ تجتاز كامل مساحة القمّة عند تلك النقطة من عبور الكورديليراس. وربّما، لستُ متأكّدًا، عوّض ذلك نزوعها إلى النّزول بإعادة الارتقاء مرّاتٍ أخرى. وهكذا

(1) المزواة: أداة بمنظار متحرّك بين مستويين عمودي وأفقي، يستعملها مسّاحو الأراضي لقياس الزّوايا والتخطيط.

(2) الشاقول: أداة يستخدمها البنّاؤون للتأكّد من استواء الأسطح.

برز السؤال: إلى متى تستمر هذه المسطّحات؟ وهل كانت الأجزاء الصاعدة تتوازى بالفعل مع الأجزاء النازلة؟ وبالجواب عن هذا السؤال أمكن لكيت أن تحدّد فرصتها الأخيرة، فهي ما لم تصل إلى المستوى الأدنى من هذه التضاريس في وقت قريب، وفي جو أكثر دفئًا، فإن الإرهاق الذي أصابها كفيل بجعلها ترتمي أرضًا، تحت غطاء من البرد الشديد لن يسمح لها بالنهوض ثانيةً بعد أن تكون قد فقدت الدفء الذي تبعثه الحركة في جسمها. أو على العكس، فهي حتى وإن استمرت في الحركة، فإن شدّة البرد في حدّ ذاتها ستطغى على ما تبقى لديها من طاقة قليلة لم يمتصّها التعبُ بعد.

في هذه المرحلة من تقدمها، وبينما بدا السؤال المُمِضّ لانهائيّا كما لم يكن من قبل، عاد صراع كيت مع اليأس الذي هوّنه اتّقادُ صَلَاتها، ليحوّم حولها بسوداويّة أكثر فتكًا. وعندما رمت نظراتها حولها، في سباق مع الزمن ومع ما تبقّى من الطريق، أدركت، يا للمسكينة، كم أنّها غير مؤهّلة بالمرّة، ستكون في هذه الظّروف وفي سباق ضدَّ اثنين من أشدّ الكائنات توحّشًا: الزمان والمكان ! هذه اللّحظة من رحلتها، وهي في أوج صراعِها، تلخّص معاناتها بأسرها. كان اليأس طاغيا، ولكنّ أيّ درجةٍ من الأمل كانت محفّزا لقدراتِها على المضيّ قدمًا. كانت تتعثّر في فوضى الانجرافات والمهاوي الثلجية المروّعة في طريقها نحو قمّة صخريّة أظهرت مع انعطافها تعاقبات لانهائية لنفسِ التضاريس. فهل يمكن أن تُقاومها روحها المُنحسرة وأطرافها المتصلّبة، تحت ظلام مروّع كالذي بدأ يتكاثف أمامها

الآن؟ إذا انتصر اليأس مرةً واحدة، فإنّ ما تبقّى من قِواها البدنية سينهار في الحال. أوه... حقولٌ خضراء، أكواخٌ، رجالٌ ونساء (بدوا أمامها الآن فجأة إخوةً وأخوات)، أكواخ يلعب الأطفال حولها، كانت أمامها على مرأى العين. أوه! الصيف والربيع، ورود وأزهار، رموز الله التي بثّها في الطبيعة وجعلها تبعثُ كماله الغامض على الأرض إلى الأبد. هل صحيحٌ أنّ كِيتْ المِسكينة لن ترى انبعاث الحياةِ هذا أبدا مرّة أخرى؟ هكذا تمتمت بينها وبين نفسها. غريبةٌ حقّا تقلّبات المدّ والجزر في محيط المشاعر الإنسانية. وفي هذه اللحظة تمامًا، عندما كان اليأس يتكثّف بسُرعة في قلب كيت ويُصيبها بعجزٍ تامّ، نزلتْ صعقةٌ من البرق المُفاجئ في روحها، بدت كأنّها صدى من وراء الطّبيعة استجابَ لصلواتها. تملّكتها رغبة قوية في الالتفات. ربّما كان ذلك بقوة الحنين الجارف إلى ذكرياتها في هذه المنطقة المخيفة. ثبّتت بصرها على نقطة من التلال حدّدتها بالبقعة التي تركت فيها الجثث الثلاث مُستلقيةً على الأرض. بدا الصمت أعمق من أي وقت مضى، ولم يكن هناك بارق حياة تستطيع أن تراه أو تسمعه، ولا حتى جناح طائر، أو صدًى، أو ورقة خضراء، أو شيء زاحف، يتحرك أو يخفق على هذه الأرض اليباب. كم سيكون من المريح أمام عبء هذا الصمت، لو أنها سمعت آهةً بشريَّة! كل شيء بدا مُحفّزًا على يأس أكثر قتامةً.

ومع ذلك، في تلك اللحظة، بدأت خفقةٌ من الفرح تُذيب الجليد الذي غطّى قلبها، وهي تمعن النظر في الأرض التي لم تشكّ في

أنها كانت تنحدر ببطء منذ فترة. كانت حواسها تتبلّد بفعل ما مرّت به من معاناة. لكن إدراكها المفاجئ لحركة النزول المستمرة هو ما جعلها تستديرُ. وأكّد نظرها إلى خطواتها ذلك، فالمسافة التي قطعتها إلى حدّ الآن كانت كافية لتحديد اتجاهها. نعم، نعم، بالتّأكيدِ كانت تنزل منذ مدّة. وبدت رجفةُ الفرح مخيفةً وهي تهمس إليها بأن الأسوأ قد انتهى. بدا الأمر كما لو أن ظلال منتصف الليل، التي يحتمي تحتها القتلة، ابتعدت عن ملجئك المُحاصر، وأنّ الفجر سيبزغ قريبًا، كما لو أن فيضانًا مروّعًا تدفّق على جدران بيتك طوال اليوم ثم توقّف فجأةً فصرت تفكّر في أن تنهض وتخرج، بعد أن اكتشفت باستخدام فادنٍ[1] ذهبيّ أن الماء انحسر وأن عائلتك العزيزة قد نجت.

أدارتْ كيت وجهها هنا وهناك محاولة تحديد الاتجاه الصحيح. ورأت ما لم تره في فوضى حيرتها قبل تلك اللحظة: رأتْ كتلتين من الحجارة مكوّمتين أمامها كأنهما بوابة. رجّحت أن تلك الفُتحة تؤدي إلى الطريق. وبينما هرعت مسرعةً إلى الأمام، مرّت بعدة بوابات طبيعية أخرى كانت أشبه بمداخل تؤدي إلى الفردوس. تُرى، ما المشهد الذي ستظهره الطريق لعينيها المذهولتين؟ أي كَشفٍ تعد به السّماء؟ عبرتْ وهدةَ وادٍ صغير ينحدر إلى الأسفل على امتداد ميلين، ويتشعّب إلى أكثر من اتجاه. كل شيء أصبح الآن أكثر وضوحًا. كانت تنزل لساعات، أو ربما تنحدر باستمرار على هذا الدّرج العظيم دون أن تلاحظ ذلك. نعم، كانت تخلّف وراء

(1) الفادن: أداة لقياس استقامة البناء ومعرفة استوائه.

ظهرها مملكة الصقيع وانتصارات الموت، وما لم تجد مأوى بعد ميلين آخرين، فستضطر إلى التوقّف لتنال قسطًا من الراحة في العراء.

لمحتْ آنذاك، وهي في قمّة سعادتها، على الطرف الآخر من ذلك المشهد الصّخري، أجمةً تغطيها أوراق الشجر الخضراء الداكنة. كان حزامًا من الأشجار، كالذي في المتنزهات الإنجليزيّة الجميلة، ولكنه معزول بستار كثيف من الشجيرات المتشابكة. أوه، يا خضرة شجيرات الزيتون الدّاكنة، المُهداة للعينين المرهقتين، كما لو أنك ملاكٌ مجنّح يحمل الخلاص، يحلّق حذو خيمة عربيّة منعزلة، ويحمل راياتِ السلام في صحراء منقطعة، هل ستموت كيت حقًّا وهي تراك دون أن تتمكّن من الوصول إليك؟ وهناك على حافةِ أراضي البشر، واقفة داخل الحياة، ولكن متطلّعة نحو الموتِ الأبديّ، هل ستتحمّل آلام دعوتك الساخرة، فقط كي تخونيها؟ مطلقا، ربّما كان الخيطُ الفاصل في هذا العالم بين الخلاص والانهيار مخدوشا. ومثل الحمام وفراخه الهاربة من الصّقور المُنقضّة، سواء أفلحت في الطّيران نحو الأجمات الجاثية أو لم تفلح، ومثل الزّوارق والمدفعيّاتِ المسيحيّة أمام الغزواتِ الإسلاميّة الدّامية والتي، للأسف، لا تستطيع رفع مراسيها لتبحر، كانت كيتْ المسكينة، هاربة من ثأر الصّقيع الذي يلاحقها.

أخيرًا وصلتْ مترنّحةً وذاهلةً يكاد يغمى عليها. دخلت إلى سرادق تلك الأشجار الظليلة. كانت مثل لاجئ عبرانيّ يستجير بمدينة مّا وهو يهرع للنجاة بحياته قبل أن يطاله انتقام دموي، مثل

لاجئ مثقل بكل الهموم وهو يقترب من مدخل منيع يبدو له كأنه بوابة الجنة، بينما يركع شاكرًا وهو يقبّل ظلالها الرحيمة المقدّسة دون أن يستطيع النهوض ثانيةً، ولكنه يغرق مثل طفل في نوم عميق، نوم لا يستطيع أحيانًا الصّحو منه. هكذا غرقت كيت، وهي تنهار أرضًا، دون أن تجد في نفسها قوةً على اختيار المكان الذي ترتمي عليه، مع احتمال ضئيل في أن تنهض ثانيةً لتقف على قدميها.

استلقتْ الراهبة المحاربة كما شاء لها الحظ، ورأسها مُغطّى بشجيرات الأجمة تحسّبا منها لأيّ عاصفةٍ ربّما تهبّ. ارتمت منهارة وعيناها تتطلّعان إلى السماء. وقبل أن تغرق في نومها رأتْ شيئين لم يكن ثمة أنسب منهما لعيني راهبة تنغلقانِ، سواء كانت ستفتحهما مرةً أخرى، أو ستنغلقان إلى الأبد. رأت الأغصان المتشابكة فوق رأسها وهي تأخذ شكل قبّة بدت لها كأنها قبّة كاتدرائية، ومن فرجة في تداخل أوراق الشجر الشبيه بالزخارف رأت قبة أخرى أبعد من ذلك، رأت قبّةَ السماء، قبّة كاتدرائية سماوية لم تبْنها أيادي البشر. رأت في هذه القبة العلويّة لمعان نجمة المساء، وكانت أضواء حيّة تعكس الأبهة الشجيّة لألوان الغروب كأنها جوقة تترنّم. لم تكن، حتى الآن، قد أدركتْ في أي ساعة هي، أكانت صباحًا أم ظهيرة أم ما بعدها. لم تعرف على الإطلاق في أي وقت هي. همستْ لنفسها: «إنه المساء»، ولكن ما تخفيه هذه الكلمات دون إدراك ربّما كان: «الشمس التي تتوهّج أكملت عملها لهذا اليوم، والبشر الذين يعملون انتهوا من أداء أعمالهم، وأنا التي أعاني أنهيت ما لدي».

ربما كان ذلك هو ما فكّرت فيه، ولكن ما قالته هو: «المساء، هذه هي الساعة التي يُسمع فيها جرس البشارة[1] في سانت سباستيان». ما الذي جعلها تفكر في دَيْر سانت سباستيان وهي موغلة على هذا البعد في أعماق المكان والزمان؟

كان عقلها تائها الآن بعد أن توقّفت قدماها عن التّيهِ. ولأن عينيها نزلتا من القبة السماوية إلى القبة الأرضية، فقد جعلها ذلك تفكر في الكاتدرائيات الأرضيّة والجوقة الكاتدرائية، وكنيسة سانت سباستيان بأجراسها الفضية التي حملت صلاة التّبشير الملائكيّ بعيدًا إلى شعاب الجبال ووديانها الخفيّة. ربما ظنّت نفسها، مع تيه أفكارها المُتزايد أنّها عادت إلى طفولتها. صارت «قطّةً» مرةً أخرى، متصوّرةً أن كلّ ما حدث منذ تلك المرحلة كان مجرّد حلم مخيف، وأنها الآن ليست فوق جبال الأنديز المروّعة، لكنها ما تزال راكعةً في مصلاّها المقدّس أثناء صلاة الغروب، ومازالت بريئةً ومحبوبة كما كانت آنذاك، إنّ جميع من قالوا بأن يدها ملطخة بالدّماء كاذبون يفترون عليها. قليلٌ بما يكفِي ما ذُكِر عن الأوهام التي تملّكتها. ولكنّ هذا القليل يعطي إشارة للدّافع الذي انصاع له قلبها الرّاجف، وجعله عقلها المشتّت يتكاثرُ كأنّه أمام العديد من المرايا المتقابلة. أبقاها القلق في أحلام يقظة لنصف ساعة قصيرة، ولكن الحمّى والهذيان لم ينتظرا أكثر من ذلك. اجتاحها الإعياء القاتل والحمّى والهذيان والإرهاق، بكل قوّة، كأنّها جيش يتقدّم نحوها بالرّايات.

---

(1) جرس البشارة Angelus أو صلاة التبشير الملائكي: صلاة إحياء التجسّد في المسيحية.

مغمورةً بالشّفق، توقّفت الرّاهبة عن رؤية الكاتدرائيات الأرضيّة، والكاتدرائيات الأكثر مهابةً التي أطلّت عليها من السماء.

طوال الليل، نامت في تكيّة سانت برنارد المخضرّة دون أن تستيقظ. وكان احتمال نهوضها مرّة ثانية وقفًا على ما سيحدث. كان السُّبات المُحوّمُ في دماغها مثل العمود الفضّي وهو يتذبذب في أنابيبِ التّجارب، يغرق، يطفو، يتعمّقُ، يتخفّف، ينكمشُ، يتمدّد، أو مثل ضباب في ظهيرة قائظة يخيّم على نهر سانت بيتر الأمريكي، أحيانًا يتخفّف لبضع دقائق في ضبابٍ مشمس، وأحيانا يتيبّس لساعات في غطاء من الظّلام الجنائزي.

يمكنكَ تخيّل أنّها بعد اثنتي عشرة ساعة من النوم، قد استردّتْ حيويتها، وعلى الأقلّ لأنها أصبحت في حال أفضل من الليلة السابقة. لكن النوم لا يعيدُ إلينا حيويّتنا كما كنّا دائما، فهو أحيانا أشبه ما يكون بغرفة سريّة يعدّ فيها الموت عتاده. النومُ أحيانًا هو ذلك الفضاء الغامض العميق الذي تفرد الروح فيه جناحيها ببطء متأهّبة للطيران عن الأرض.

إنها الثامنة صباحًا، ويبدو أنّ كيت، ما لم تتلقّ عونًا قبل الظهر، فسترحل إلى مثواها الأخير مع رحيل الشمس إلى مغيبها. عندما تحمل الشمس للبشريّة إشارة الرّبّ الذهبيّة، تحينُ السّاعة كي يُلطّف من غضبه، وعندها تنام كيت إلى الأبد بين أكثر الأحضان مغفرةً.

ما كانت كيت تحتاج إليه في تلك اللّحظة، لو افترضنا أنّ العالم يحتاجُ إليها، هو أن يكون هذا العالم لطيفًا بما يكفي ليقدّم إليها القليل من البراندي قبل فوات الأوان. لكن الحقيقة البسيطة، الحقيقة التي أعرفُ أنها تتعلّق بسيدات أخريات أكثر مما ترتبط بكيت نفسها، هي أن اللّواتي متن أو لم يمتن -ووجدن أو لم يجدن إلى جانبهنّ شخصا نصوحا مثلي قادرًا على إبداء الرّأي السديد- يعرفن أن نجم الحياة يأفل بعيدًا نحو المغيبِ، ما لم يُبذل أيّ مجهود يجعله يبزغ من جديد.

كانت نارُها ما تزال تشتعل في الخفاء، ولكن كان لابد من نفَس قوي يؤججها. لذا فقد بدأت تخمد شيئا فشيئا، وما لم يكن هناك محفّز مّا من نبيذ الأرض، فلن تتوهج مرة أخرى. وإن كنت في ظروف أخرى غير ظروف كِيتْ، عرفتُ سيّداتٍ كثيرات أو سمعتُ عنهنّ في ظروفٍ مُختلفة، وقد كنّ يُشارفن على الموت احتياجا إلى جرعة صغيرة من البراندي، مقدار ملعقةٍ أو اثنتين كانت ستنقذهنّ قبل أن ينمن إلى الأبد تحت نجوم جميلة في منحدرات الأنديز. أغرب عن وجهي، أيّها الشّارِبُ المُعتدلُ للكحول، يا صاحب الأوسمة العديدة. تُب بأسرع ما أمكنك، وإلاّ فإننا، في المرة القادمة، سنسمع عن إصابتك بتليّف الكبد، عقابا لك على إدمانك على شرب الماء. في الواقع، تتضمّن مهنة الطّبّ مجموعة من أكثر الرجال كرما وتحرّرا بيننا، وعموما فإنّ أكثرهم استنارة، هم أكثرهم خجلا. أقول إنّ الحاجة إلى جرأةٍ كبيرة في وصفِ الأفيون، ولو أنّهم جريؤون كفاية في وصفِ الزئبق، تشكّل عجزهم الكبير.

ومن هذا العجز تُعاني النّساء أكثر. وفي حالةٍ أخرى بالكادِ أذكرها، تتعلّق بسيّدةٍ جليلةٍ حزنت عليها أمم كثيرة، ومع احترامي لمن كانت، فإنّ اعتقاد الجموع إلى حُدود هذه اللّحظة، (أشخاص قادرون على الحكم جيّدا)، هو أنّه كان بالإمكان إنقاذها بكأس من البراندي، وأنّ مُرافقها الذي أطلق النّار على نفسه، توصّل إلى التّفكير في ذلك متأخّرا كثيرا عنها وعن نفسه. ومن بين الوضعيّات الأخرى من نفس الطّبيعة، التي عرفتها شخصيّا منذ عشرين عاما، كانت عن تلك المرأة أثناء مخاضها الأوّل أو الثّاني، والتي روى لي زوجها، وهو رجل مشهور برقيّه الفكريّ، كيف جاءت إحدى مرافقاتها فجأة لتُخبره بأنّ حالة زوجته تتعكّر بسرعة. سارع إلى غرفتها وتأكّد من ذلك بعينيه. كان رئيس الأطبّاء حاسِما في الأمر. «أوه، دون شكّ» قال وهو يحرّك باروكته، «أيّ منشّط تأخذه في هذه الأزمة، سيكون قاتلا». ولكن تأكدوا أنه لا وجود لسلطة طبّية تتفوّق على مواكبة الأعراض، والآراء غير المختصّة. بلُطفٍ زائفٍ، أخرج صديقي الطّبيب من الغرفة، ووضع في الحينِ كأسا من البراندي بين شفتي الفتاةِ المسكينة التي تعافت بقوّة سحريّة. لقد رحل الطبيب عن هذا العالم، وذهب إلى قبره بالاعتقاد الوهميّ بأنّ ما أنقذ مريضته ليس البراندي الوضيع، بل الرّفض الصّارم لهُ. المريضة نفسها، التي عرفت بالطّبع عن الأمر، كان لها رأي آخر، فقد انحازت إلى جموع الواقفين حول فراشها (ما عدا الطّبيب)، الذين كانوا متأكّدين من أنّ الموت يقترب منها، لولا

ذلك البراندي. وعرفتُ نتائج مماثلة لهذه الأزماتِ المروّعة بفضل خمس وعشرين قطرة من اللودنوم. سيقول رجلٌ متعصّب: «أوه، لا تستمعوا أبدا إلى شخصٍ غير خبير في الطّبّ مثل هذا الكاتب. استشيروا طبيبكم في حالات مماثلة». حقّا؟ إذن دعني أخبرك بأنّك فوّتّ منطق كلّ ما كنت أقوله من أجل تحسين فهم الجهلة، في ما يتعلّق باستشارةِ شخصٍ آخر غير الطبيب، إذا كان ذلك الشّخص لا يملك حُكما متعصّبا بخصوص الخجل المهنيّ. ملاحظة: أصِفُ هذا لكيت مجانا، لأنّ المسكينة، لديها القليل لتقدّمه. ولكنّي أتوقّع مقابلا كبيرا لقاء خدماتي، من فتياتٍ أخرياتٍ قد يسعدن من الاستفادة من نصائحي. سأطلب نبتةً مزهرة، نبتة من الدرجة الثانية في مجموعاتهنّ. أعرف أنّه لن يكون مجديا طلبُ الأفضل من بينها. (بماذا يمكنني القيام غير هذا؟) لأنّ هذا سيدفعهنّ إلى أكاذيب صغيرة. لن أصرّ على «يوكا غلوريوسا» أو ماغنوليا (أتمنّى أن يكون لديهنّ هذه النبتة) ورديّة ربّما أو بنفسجيّة ستفي بالغرض. أنا متأكّد من وجودِ نبتةٍ مماثلة. وإذا سدّدوا ديونهم في الإبّان، سأكون قريبا صاحب أجمل بُستانٍ في إنجلترا. إذن، لا تتعاملوا مع الأمر على أنّه مزحة، أيّها القرّاء الأعزّاء. فهذه الممارسات الخجولة في أوضاع مماثلة، تتكرّر بفظاعة.

لكن كيت محظوظة على الدوام، بالرغم من المحن التي تلاحقها. فالعالم كان قد اتخذ قراره، متبنيًا وجهة نظري في أنّها تستحق النجاة، وصدرَ القرار حوالي الساعة الثامنة والنصف من ذلك الصباح بأن يتم إنقاذها. في ذلك الوقت تمامًا، بعد أن انقضى الليل وتلاشت

محنه، وفي تلك الأضواء الخافتة والمتقطّعة التي أضاءت الغيوم في غيبوبة كيت، للحظة أو اثنتين، التقطت أذنها الواهنة صوتًا تحدّث إليها على مدى سنوات طويلة بلغة مألوفة لها. فماذا كان؟

كان صوتًا مكتومًا وشبه ميّت، مثل الأذن التي سمعته، يصدر عن فرسان يتقدّمون. وأوّلته كيت في أحلامها المضطربة. هل كانوا من سلاح الفرسان الإسباني الذين قادتهم في أحيان كثيرة لتهاجم الهنود؟ هل كان ذلك، وفقًا لأساطير الأيام القديمة، سلاحَ الفرسان الذي سُقي من دماء أخيها؟ هل كان سلاح الفرسان الذي انبثق من الأرض وانطلق عبر جبال الأنديز عازمًا على اعتقالها؟

تراجعتْ أحلامها. استيقظتْ بكآبةٍ على ذلك الصوت، دون أن تسمع إجابة. ثم غابت مرةً أخرى في ظلام دامس. لحسن الحظ، لمح الفرسان على ثوبِ كِيتْ بعض الزّخارف اللامعة، كالنياشين والمشابك. كانوا صيادين من سكان الغابات في سفوح الجبال، وخدمًا في منزل سيدة طيبة جاؤوا يتجوّلون ويتسابقون خارج حدود الأرض التي يشتغلون بها. لفتَ انتباههم اللمعان المفاجئ لثوب كيت تحت شمس الصباح، فعرّجوا نحوها، وتفاجؤوا بضابط شاب في زيه الرسمي ممدّدًا على الأرض بين شجيرات الأجمة. ولأنهم كانوا يعيشون منذ طفولتهم على هذه التخوم المهجورة التي لا يزورها سوى الموت فقد رجّحوا أن يكون الضابط ميتًا أو يحتضر.

ترجّلوا وحملوا المسكين المتجمّد بردًا بين أذرعهم برقّة النّساء. بلّلوا صدغيه ببعض البراندي، بينما سكب أحدهم بضع قطرات

على شفتيه. وما أن بثّوا في جسده بعض الدفء حتى حملوا الشاب الغريب المجرّد من قِواه على أحد جيادهم. وساروا إلى جانبه يسندونه بأذرعهم. مرةً أخرى عادت كيت لتمتطي السرج وتصير فارسًا إسبانيًا، ولكن اللّجام كان متيبّسًا من البرد، ومهمازا السرج اللّذين لم تفكّهما منذ غادرت ملجأ الرهبان معلّقين مثل شراع تخفق به الرياح على ظهر سفينة جانحة تقطّعت بها السبل.

كان أمام هذا الموكب بضعة أميال يقطعها على أرض وعرة. ثم وصل إلى حديقة شبيهة بالغابة الصغيرة يتوسطها قصر ريفيّ. كانت كيت لا تزال شبه متجمدة وعاجزة عن الكلام إلا بتقطع. يا للسماء! هل يمكن لهذه السيدة الشابة العاجزة الشّبيهة بالجثة أن تكون هي كيت التي انقضّت في صباها المتألق مع مجموعة من رفاقها على رتل من ألفي عدو؟ أهي التي رأت رفاقها يموتون جميعًا أمامها بينما بقيت هي على قيد الحياة؟ أهي التي انتزعت من قلب الصّراع راية بلدها وعادت بها؟ لقد كَتَبَتْ مصادفات القدر انكسارات غريبة على وجهها، لكن بعض الأشياء لم تتغير. لا يزال هناك اللطف الفائض رأفةً، كما لا يزال هناك العجز الذي يستجدي هذه الرأفة دون صوت. استقبلتها الآن الـ«سنيورا»[1]، سيدةٌ لم تكن أقل لطفًا ورأفةً من «الخالة» التي استقبلتها في الدّير ليلاً بُعيْدَ ولادتها ورحّبتْ بها لأول مرة في بيتها الدافئ. أمّا الآن فهي، بطلة إسبانيا، عاجزة تماما مثل تلك الرضيعة التي قبّلتها وباركتها كل أسرة القديس سباستيان ولم يبلغ عمرها يوما واحدا بعد.

(1) سنيورا Senora: سيدة إسبانية.

دعونا نفترض أن كيت وُضعت في سرير دافئ واستعادت وعيها في غضون ساعات قليلة، واستردّت صحّتها في غضون أيام. ثم أصبحت في غضون أسبوعين قادرة على البحث عن ردهة الجلوس حيث تجلس السنيورا وحدها، وأنها شكرتها بصدق كبير طالما وسم قلبها الكريم، على ما قدمت لها من رعاية فائقة هي وطاقمها.

كانت السيدة أرملة، وهي مهجّنة من أب إسباني وأم هنديّة. سأدعوها ببساطة كْرِيُول[1]: في تلك الفترة، كان تسرّب الدّم الزّنجي أو الإفريقيّ نادرا جدّا، ونتيجة لذلك لم ينتشر أيّ قبح زنجيّ. وبناء على هذه التّقاطعات، نشأت من بين كلّ تعقيدات النّسب ومن ثلاثة فروع أصليّة، الأوروبيّة والأمريكيّة والإفريقيّة، الاختلافات في الاعتبارات الاجتماعيّة، والتي ترتكز عليها كثيرٌ من أسماء الولادة، إلى درجة أنّك ستحتاج إلى جدول أعمالِ المحكمة، لتفادي الخلط. وهكذا، فإنّ التنوّعات كانت قليلة. وفي الأثناء، فإنّ كلمة كريول يُساء استعمالها في مستعمراتنا الإنجليزية عند الإشارة إلى شخصٍ ولد في جزر الهند الغربيّة، بالرّغم من أنّه ينحدر كلّيّا من دماءٍ أوروبيّة. هذا الاستعمال الإنجليزيّ، يعبّر عن نفس الاختلاف في ما يقصده الرّومان بهيسبانوس وهيسبانيكوس. الأوّل يعني شخصا بدماء إسبانيّة، والثاني شخصا رومانيّا مولودا في إسبانيا. ونفس الشّيء ينطبق على جرمانوس وجرمانيكوس، إيطالوس وإيطاليكوس، أنجلوس وأنجليكوس. فرقٌ مهمّ جدّا. بإمكانكم مراجعة كتب التاريخ الأغسطسي لكازوبون.

---

(1) كريول Creole أي خلاسيّة.

هذا ما يفسّر إذعان السّيّدة واحترامها لذوي الدم الإسباني النقيّ. كانت امرأة لطيفة متفتّحة غنيّة بأكثر ما تحتاجه، في حوالي الخمسين من عمرها، وفقا لحساب هذا العالم الخبيث، وفي الأربعة والأربعين وفقًا لحسابها هي. وكانت سعيدة، قبل كل شيء آخر، بابنتها رائعة الجمال التي لم تتجاوز ستة عشر عامًا وفقا لحساب العالم.

كانت هذه الفتاة، جوانا، لكن، لنتوقف هنا، دعها تفتح باب الصالون حيث تجلس السنيورا مع الضابط، لتتحدث قليلًا عن نفسها. فعلت ذلك بعد مرور ساعة. الوقت بالنسبة إليها، سواء تعلّق بالعالم القديم أو الجديد، لا معنى له في حسابات حياتها البريئة.

لو كان بيترو دياز (الاسم الذي ادّعته كاتالينا للتّوّ) هو حقًّا بيتر، وليس بيتر زائفًا، ترى أيّ حدّ من الافتتان كان سيطغى على مشاعره في تلك اللحظة التي فتحت فيها جوانا الباب؟ لا تتوقعوا منّي أن أصفها، فهناك على كل حال الكثير من الموادّ التي ظلّت خبيئة فيها لمائتين وعشرين عامًا[1]. ربما أكتفي بإخباركم أنّ جمال أقدام الأندلسيّات وبراءة عيون البيروفيّات توحّدا فيها. أما بالنسبة إلى تقاسيمها ولون بشرتها، فالمعروف أن والد جوانا كان رجلًا من غرناطة تجري في عروقه أروع دماء على هذه الأرض، دماء القوط والوندال التي امتزجت مرتين (شكرًا للسماء على ذلك !) مع الدم العربي، مرةً عبر المغاربة، ومرةً عبر اليهود: من المعروف أنّ الدّافع الذي جعل إسبان جميع الأمم يغارون بشدّة من تقاطع يهوديّ في

(1) المدة التي تفصل بين زمن كتابة هذه القصة والزمن الذي عاشت فيه كاتالينا.

شجرة الأنساب، هو أنّه لم يسبق مثيل لهذا التّقاطع في أيّ أمّة، قبل يقظة الكنيسة الشّرسة. الكراهية المتولّدة من الخوف هي الأعمق دوما. وكره الرّجال الوصمة اليهوديّة مثلما كرهوا الجذام في القدس سابقا. وبالرغم من أنّهم حاربوه بشراسة، فإنّ بالإمكان ضبط براهينه السّرّية في أقربائهم. وحتّى في المعبد الكبير، عندما شنّ ملكٌ ثورة ضدّ الكهنوت، فإنّ مرض الجُذام اشتعل على جبينه، وانتزعه من عرشه.

ورثت جوانا من جدّتها كآبةً عميقةَ الرقّة، وأطرافًا جميلة تنتمي إلى العرق الهندي، هذا العرق الذي حُكم عليه في صمت وبطء أن يتلاشى من الأرض.

لم يكن هناك شيء غريبٌ في هذه الظّبية التي دخلت إلى الغرفة وهي تحمل معها نضارة الغابة. لا شيء من الارتباك والخجل المعروفين لدى بنات المدن، بل دخلت بخطوات طبيعية، عفويّة وودودة، مقبلة على الترحيب بحرارة، دون أن تعرف ما إذا كان يجب عليها ذلك -مثلما كانت دهشة ميراندا المترعرعة في عزلة تامة عندما رأت الأمير فرديناند للمرّة الأولى[1]- وأذكّركَ بكلّ تحفّظ أنّ كاتالينا لم تفكّر في أنّ إخفاء جنسها سيكون مناسبا. ولك أن تفكّر أيها القارئ، إذا نظرت إلى الوراء -ولكونك رياضيًّا بارعًا- أنه بينما كانت للسيدة كْرِيول نسبة خمسين بالمائة فقط من

(1) ميراندا Miranda هي ابنة بروبسبير ملك ميلانو المنفي، وفرديناند Ferdinand هو ابن ملك نابولي، في مسرحية العاصفة لشكسبير.

الدم الإسباني، فقد كان لجوانا خمسة وسبعين بالمائة، بشكل جعل كآبتها الهندية بعد كل شيء قد تلاشت في حضور سماتها الوندالية، والعربيّة، والإسبانية.

كاتالينا التي اكتوت بالكثير من الأحداث في حياتها، عبّرت بوضوح في مذكّراتها عن أنّها تأثّرت كثيرًا بهذه الطفلة البريئة التي منحتها بعضا من الراحة تتوسّط حياتها العاصفة. وإذا كان من الممكن لها أن تختار أختًا في هذه الحياة لكانت جوانا نفسها. من ناحية أخرى، في ماذا فكّرت جوانا عندما رأت الضابط؟ كان استقباله بكل كرم وترحيب في بيتها، وإنقاذه من موت محقّق من خدمِ أمّها، ذاك الموت الذي يبعد بضعة أميالٍ، وملأ حجرتها في السّابق بالمآسي، كلّ هذا كان كافيا تمامًا لإثارة الاهتمام بهذا الغريب. لكن سلوكه العسكري الجريء، وأناقة جماله الفتيّ، وصراحته وحديثه المشوّق عن مئات وقائع المعاناة والخطر، أيقظ إعجابها للمرة الأولى، فهي لم تر من الرجال قبل ذلك سوى الخدم البؤساء، أو الكاهن الذي يزورهم من حين لآخر. ولكنها هذه المرة رأت رجلًا نبيلًا، شابًّا مثلها، عمل في سلاح الفرسان الإسباني، وحمل راية العاهل الوحيد الذي عرفه البيروفيّون، ملك إسبانيا والهند الغربية، واجتاز كيب هورن، وعَبَرَ جبال الأنديز، وعانى من غرق السفينة، وواجهَ خمسين عاصفة، وقاتلَ من أجل حياته في خمسين معركة.

يعرف القارئ كلّ ما تبع ذلك. الحبّ الأخوي الذي شعرت به

كاتالينا حقًّا نحو هذه الفتاة الجبليّة أسيء فهمه لا ريب. كان شعورًا محرجًا، ولكنه من قبيل العاطفة البريئة، أو مجرّد إحساس طاهر لا يمكن رفضه يعبّر عن لطف جوانا وإحسانها العفويّين. وفي أحد الأيام تفاجأت الأم بالضابط وهو يطوّق خصر ابنتها بذراعيه، على الرغم من أن رقصة الفالس كانت آنذاك سابقةً لأوانها بنحو قرنين على الأقل في البيرو، فاتهمته باستغلال ثقتها على نحو غير لائق. كان دفاع الضابط سيئًا وغير مقنع. تمتمَ ببضع كلمات عن «المودة الأخوية» و«الاحترام»، وبالكثير من الكلمات الميتافيزيقية المقدّر لها أن تظلّ غير قابلة للترجمة في لغتهم الإسبانية الأصلية. ولم يكن أمام السنيورا الطيبة، وهي لا تتمتّع بأكثر من أربعة وأربعين عامًا من خبرة الحياة، إلا أن تتصرّف كما لو أنّها تجاوزت الخمسين، وسرعان ما تجهّمت وأبدت ضيقها من الأمر، وقالت له:

«أنتَ رجلٌ إسباني نبيل، ويجب ألا تنسى أنك نبيل. إذا لم تكن نواياك جديّة هذه الليلة، غادر منزلي. اذهب إلى توكومان[1]، تستطيع استخدام خيولي وخدمي. ولكن لا تبقَ أكثر من هذا حتّى لا تُخلّف وراءك مزيدا الحزن. ابنتي تحبّكَ. إذا كنتَ تعبث هنا فهذا يكفي. ولكن، إن لم تكن كذلك، وكنتَ تحبها أيضًا، وتستطيع أن تكون سعيدا مع نمط حياتنا المنعزل هذا، فابق معنا، ابق إلى الأبد. تزوج جوانا إذن، بموافقتي التّامّة. أنا لا أبحث عن الثروة. ثروتي تكفيكما معًا».

---

(1) توكومان Tucuman: مدينة في الشمال الغربي (ضمن حدود الأرجنتين حاليًا).

احتج الضابط قائلًا إنه لم يفكّر في نيل هذا الشرف العظيم أبدا. لكن، أنتَ تعرف بالطبع، أيها القارئ، أن الهُراء يزدهر في البيرو بين مناجم الفضة، وكذلك في بعض الأراضي الشمالية التي تنتج أشياء أفضل بقليل من النحاس والقصدير. إلاّ أنّ للقصدير استعمالاته طبعا. رفضت السّنيورا جميع الاعتراضات، كبيرها وصغيرها. أما كاتالينا الضعيفة والمسكينة، التي لم تعمد إلى التصرّف بتهوّر، فقد شعرت بحزن صادق بسبب هذا الإحراج، وانكمشت بأنوثة بالغة بسبب الصدمة التي ستحدثها أي موافقة على هذا الالتزام الدائم. تشبثت بما يمكن أن يتيحه لها تأجيلُ هذا الأمر مهما كان قصيرًا، ووافقت في الأثناء على إظهار حبّها لجوانا. وأدّى الإعدادُ واختيارُ الوقت المناسب بالطبع إلى تأجيل الزواج، فقد كان من الضروري القيام بمشتريات مختلفة من توكومان، كما أن هذه المدينة، من ناحية أخرى، ستكون مكانًا أفضل في كل الأحوال لإقامة حفل الزواج.

وهكذا، بعد بضعة أسابيع ذهب الجميع إلى توكومان. وهناك، وقعت أحداثٌ مأساوية وضعت حدّا لهذه المهزلة إلى الأبد، ولكنّها تركت جوانا المسكينة التي لا تزالُ تشعر بالسعادة، مخدوعةً وغير مصدّقة للحظة واحدة أنّ قلبها قوبل بالرّفض وتعرّض للخداع.

ينسى أحد مدوّني رواية السيد دي فيرير[1] كرمَه المعتاد، عندما يقول إنّ السيدة كْرِيُول لم تكن لا مبالية تماما عندما قدّمتْ ابنتها

(1) هو Joaquín María de Ferrer (1777 - 1861): قائد عسكري ورئيس وزراء إسبانيا، نشر سيرة الراهبة الذاتية سنة 1825.

كهديّة لضابط برتبة ألفيريز. من المؤكّد أن ذلك لم يكن من قبيل اللامبالاة كما يمكن للجهل الأوروبي أن يتخيّل، ولكنه تصرف هدفه تحقيق توازن لاهتمامات الفتاة. هذا الأمر مؤكد، فهذا الإسباني الأصيل كان كائنا نادرا جدّا في عالم واسع مثل بلاد البيرو. إنه يتميّزُ بنبلٍ طبيعيّ، مثل إسبارطيّ بين العبيد، أو رجلٍ إنجليزي بين المتوحّشين، لذا فإنّ من شأنِ هذا الضابط أن يُضفي سمةً من الشرف على زوجته ونسلهما، وأن يعطي بذلك إضافة إلى مكانة الأسرة. على كل حال، لم يجد الإسبانيُّ عند وصوله إلى توكومان أيّ إسبان هناك يمكنه الاختلاط بهم، ولكنه وجد، بدلًا منهم، اثني عشر برتغاليًّا.

تذكّرت كاتالينا المثل الإسباني القائل: «خذْ من الإسباني جميع صفاته الحسنة، يبقى لديك ما يمكنه أن يصنع برتغاليًّا جيّدًا». ولأنّها لم تجد أحدا آخر تقامر معه، فقد انضمّت إليهم بحرّية. وبمرور بعض الوقت، اكتشفت أنّ هناك غِشّا في اللّعب. لقد تعرّفت على أساليب الغش جميعا أثناء تجربتها في المعسكرات. لذا فقد تابعت اللعب، وبخسارة آخر قطعة نقدية لديها، اقتنعت بأنه قد أُحتيل عليها. في مستهلّ نوبة غضبها كادت تتراجع وتنسحب، ومع استمرار الصّخب على الطاولة صارت أكثر تركيزًا لمعرفة الرجل المحتال، إلى أن التقطته. كان اسمه فرناندو. وعلى الفور قرّرت أن تنزل العقابَ به. تبعته إلى الشارع، واقتربتْ منه بما يسمح لها بتمييز تقاسيمه التي انعكس ظلّها على الجدار. استمرتْ في ملاحقته وإبقائه تحت ناظريها على مسافة قصيرة.

كان الفارس الشاب يصفّر لحنَ أغنيةٍ رومانسية برتغاليّة قديمة، إلى أن وصل بعد ربع ساعة إلى باب أحد المنازل. وبمجرّد أن شرع في فتحه، خمّنت كاتالينا بأن ساعة الانتقام قد حانتْ، فتقدمتْ نحو البرتغاليّ على عجل وغرزت سيفها في كتفه، قائلة:

«أيها السيد، أنت لص».

استدار البرتغالي بكل هدوء، وعندما شاهد خصمه في اللعب، أجابه وهو يسحب سيفه:

«ربما، يا سيدي، لكنني لست مهتمًّا بسماع ذلك».

لم تَقُمْ كاتالينا باستغلال الموقف، وما يؤكّد ذلك أنّها ظلّت تلامس كتفه وهما يتحدّثان، فضلا عن طبعها المعروف في هذا. وكان من المُرجّح ألاّ يتردد هذا الخصم، الذي أفصح عن نواياه من الأوّل، في اتّخاذ وضع المدافع عن نفسه. وهكذا، لم تكدْ تنقضي أكثر من دقيقة وهما يتقاتلان حتى غرزت كاتالينا سيفها في جسده، فسقطَ ميّتًا على باب منزله دون أنّةٍ أو تأوّه. بحثت كيت عن الطّريق بأذنيها، وبعينيها إلى الحدّ الذي يسمح به الظلام الدّامس. كان الصمت العميق يلفّ الأرجاء، وتأكّدتْ من عدم وجود شخص يتحرّك آنذاك. فكّرت في ما يجب أن تفعله بالجسد المسجّى أمامها. ولّما استقرّ نظرها على باب المنزل، رأت أنّ فرناندو كان قد فتحه في اللحظة التي استدار فيها ليخاطبها. وهكذا، جرّت الجثة إلى دَرَج الباب، ووضعت المفتاح إلى جانب الرجل الميت، ثم انسحبتْ بهدوء

وأغلقت البابَ دون أن تحدث صوتًا. توقّفت كاتالينا مرّة أخرى لتتسمّع وتراقب. ثم ذهبتْ إلى منزل كْرِيول المضياف، وآوتْ إلى الفراش لتنام. وفي صباح اليوم الموالي، أيقظها عمدة المدينة وأربعة من مساعديه.

يكشف انعدامُ القانون في كلّ ما تبعَ تلك الحادثة حالةَ العدالة الجنائية المخيفة أينما ساد القانون الإسباني في ذلك الوقت. على كل حال، لم يظهر أي دليل يربط كاتالينا بأي شكل من الأشكال بموت فيرناندو أكوستا.

ربّما كان للمقامرين البرتغاليين الذين لم يفكّرو كثيرا في هذه الجريمة، أسبابهم الخاصّة التي تُبعد عنهم الملاحقة في توكومان، ولم يقدّم أيّ منهم شهادة واضحة على الجريمة. إلا أن الملابسات على طاولة اللّعب، ورحيل كاتالينا بعد انسحاب خصمها مباشرةً، رجّحت أسبابًا معقولة لاعتقالها حتى يُسلّط مزيد من الضّوء على الحادثة. هكذا إذن سِيقتْ إلى السجن الذي لم تكن أرضيته تحتوي على أيّ فراش، وبقيتْ هناك في انتظار أن يتلقى القاضي بعض المعلومات من مصادر مجهولة، وهو أمر لم يزعمه إطلاقًا. بهذا الخصوص، هناك ميزة وحيدة في انعدام العدالة الإسبانية، وهي أنّها لا تتلكأ أبدا.

لقد مرّ أسبوع واحد كان كافيا لجمع المعلومات والمحاكمة ثم التّنفيذ. ولكنّ النتيجة الوحيدة السّيّئة، هي أنّ أسبوعا ثانيا أو ثالثا يكشفُ أحيانا الحقيقة المُزعجة بأن كلّ قرار كان «سابقًا لأوانه». لقد تم تقديم قربان مهيب للعدالة المتعسّفة فقد كان الجميع على

حقّ ما عدا الضّحيّة. كان الرجل الخطأ، وهذا ما يؤدّي إلى مزيد من المشاكل. هكذا توجّب على كل شيء أن يبدأ من جديد، وربّما الحكم بإعدام رجل آخر، لم يقبض عليه بعد.

في هذه القضية تحرّكت العدالة في نسقها الإسباني المعتاد. أُجبرت كيت على النهوض فورا، دون أن يُسمح لها بالكلام مع أي شخص من البيت. وعلى الرغم من ذلك، أثناء خروجها عبر الباب المفتوح، رأتْ جوانا وقد علا وجهها تعبير هنديّ لعلّه الأكثر حزنًا. تمّت المحاكمة في يوم واحد، ودفاعًا عن نفسها قالت كاتالينا إنها بالكاد تعرف أكوستا، وإنّ الناس في مثلِ رتبتها معتادون على مبارزة خصومهم وجهاً لوجه، ولا يعمدون إلى القتل خلسةً.

أُعجبَ القضاة بأجوبة كاتالينا، وبدأت الأمور تتحسّن أفضل من قبل. إلاّ أن الجميع انزعجوا فجأةً من أقوال شاهديْن يُدعيان دامون وبيثياس، ولكن القارئ (الذي يُفترض أن يكون متواطئًا بطريقة مّا، بعدما اطّلع على حقائق القضيّة وأخفى معرفته) سيعرف على الفور أنهما شاهدا زور. كانا يرتديان شعرًا مستعارًا قديمًا كأفضل نموذج لما يمكن عرضه في مثل هذه الحالات، كما أن مظهرهما بائسٌ جدّا حسبما اقتضاه دورهما. أقسمَ أولهما على قول الحقّ ولا شيء غير الحق، قبل أن يشير إلى أن زوجة أكوستا كانت هدفًا لملاحقة ألفاريز، أي كاتالينا، وأن الزوج المجروح دون شكّ فاجأ السجين، وهو ما قاده إلى القتل، إلى الدّرَج، إلى مفتاح كلّ شيء يمكن باختصار تمنّيه. أوه لا توقّف، ما الذي أقوله؟ إلى كلّ شيءٍ يجب أن نمقته. والآن بعد

أن هيّأ السّؤال الرّئيسي، فإنّ لديه صديقا يستطيع أن يأخذ القضيّة إلى حيثُ اضطرّ هو إلى وضعها، من قِصر نظره. وهذا الصّديق، دامون قصير النّظر، سارع بالتّقدّم نحو أعوانِ المحكمة وبدأ هذه الشهادة قائلا بفضيلةٍ مُستعرة:

«طالما أن صديقي قد أثبتَ بما يكفي حقيقة أن ألفاريز كان يحوم حول بيت فرناندو ثمّ قتله، فما يقع على عاتقي هو الكشف عن كيفيّة خروجه من البيت، وهو ما سأفعله على نحوٍ مُرضٍ. نعرف أن هناك شرفة على امتداد نوافذ البيت في الطّابق الثاني. ومن خلال إحداها، رأيتُ بنفسي بينما كنتُ مختبئا في زاوية الشّارع، كيف خرج ألفاريز ثمّ قام بقفزةٍ طائرة من الشّرفة نحو الشّارع».

كان مثل هذا الدليل قاطعًا، إذ لم يُسمع أيّ دفاع بعده. لم يكن لدى السجين في الحقيقة ما يقدمه دفاعًا عن نفسه، ولم يكن بإمكانه أن ينكر واقعة الدّرج أو الشرفة. فالشارع لا يزال هناك على نفس الهيئة، مثل القرميد في مدخنة جاك كيد، يشهد على كل ما حدث. أما بالنسبة إلى صديقنا الذي شاهده يقفز، فقد كان واقفًا هناك، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك. ربما أنكر السجين أي معرفة بزوجة أكوستا على الإطلاق، أو أنه علم بوجودها أصلًا، لكن هيئة المحكمة كانت مقتنعةً بما سمعت، ولم يكن للاعتراض على ذلك أيّ جدوى. وأخيرًا صدر الحكم، وكان ينصّ على أنه في اليوم الثامن منذ يوم الاعتقال، يجب أن يُنفَّذ حكم الإعدام على المدعو ألفاريز في الساحة العامة.

لم يكن من بين نقاط ضعفِ كاتالينا التي واجهت الموت مرّات عديدة، أن تصغر أمامه. بل إنّ العديد من الأحداث في حياتها تُظهر مدى برودها وأحيانا مرحها في المواقف التي يكون فيها الموت محتومًا، إلى حدّ المضيّ قُدمًا لمواجهته. لكن هذه المرة تملّكها وسواسُ الهروب منه، وهو ما كانت قادرةً عليه. إذ ليس عليها هنا إلا أن تكشِف عن جنسها الحقيقيّ، حتّى تُسقط أقوال الشاهدَيْن السّخيفين التي لا تحتوي على حجج ضدّها، وتجعلهما محلّ تهكّم وسخرية. كانت كاتالينا تميلُ إلى بعض المرح، والدّافع الرئيسي لهذا، هو أنّه يمكّنها من مخاطبة القضاة هكذا: «الآن ترون كيف جعلتم أنفسكم عجائز حمقى. كل نساء البيرو وأطفالها لا يملكون إلا أن يضحكوا منكم عمّا قريب». لا بد لي من الاعتراف الآن بنقطة ضعف تخصّني، الإغراء الأخير الذي لا أتمكن من الصمود أمامه: الجسدُ ضعيفٌ أما المرحُ فقويّ. لكن كاتالينا لم تفعل ذلك. وبعد التّفكير وجدت أنّه على الرغم من أن دافعها الخاص بقتل أكوستا سيُرفض بنوع من السخرية، فإنّ هذا لن يبرّئها من ارتكابها جريمة القتل بناء على دافع آخر. لكن لنفترض أن الحكم ببراءتها قد تمّ في الحالتين، فإن أكثر ما كانت تخشاه هو أن الكشفَ عن جنسها سيلقي الضوء على العديد من مراحل حياتها السابقة، وهو ما سيؤدي إلى معرفة ما أقدمت عليه في إسبانيا، وهو ما يضعها أمام محاكم التفتيش مباشرةً.

وهكذا أصرّت على عدم إنقاذ نفسها من الإعدام بالكشفِ

عن جنسها. وبقدر ما كان مصيرها بين يديها فعلًا، إلا أنها كانت ستهلك (مثلما سيعرف القارئ من حادثة صغيرة على منصة الإعدام). ولكن حتى في هذه المرحلة، يا لها من قضية غريبة! امرأةٌ اُتّهمتْ زورًا بفعلٍ ارتكبته حقًّا! اُتّهمتْ زورًا بجريمة حقيقية ولكن بناء على دافعٍ مستحيل!

في اليوم السابع، بينما كانت الشمس تغرب، وقد صارت ساعات السجينة معدودةً، احتشدتْ زنزانتها بأربعة أشخاص يرتدون ألحفةً دينية. جاؤوا في مهمة خيرية لإعداد المحكوم المسكين للموت. راقبت كاتالينا ما يحدث أمامها بنفاد صبر، وقد لاحظت شيئًا جدّيًا وذا مغزى في عيني الرجل الذي يقود هذه المجموعة، كما لو أنه مقبل على الإسرار لها بشيء خفيّ، واستطاعت أن تمسك بيدي هذا الرجل، فدسّ ورقة مطويّة في يدها كانت جوانا قد أرسلتها إلى خطيبها، تحتوي على كلمتين لا غير:

«لا تعترف».

هذا التحذير البسيط والموجز كان تعويذةً. لم يشر إلى أي اعتراف بالجريمة كان من المفترض أن تقصده جوانا، بل يشير إلى المعنى الديني المعروف في الكنيسة، أي فعل الاعتراف التعبّدي. استطاعت كاتالينا أن تلمحه للحظة واحدة، وفهمته تمامًا، فرفضت الاعتراف بحزم، كأي شخص غير مستقرّ في آرائه الدّينيّة ويحتاج إلى تعليمات روحيّة. انسحب الرهبان الأربعة لتقديم تقريرهم عمّا حدث.

عندما سمع كبير القضاة بما قام به السجين من تمادٍ في الإثم وعدم التوبة، قرّر أن يمنحه يومًا آخر. ولكن في نهاية ذلك اليوم، لم يطرأ أي تغيير على تمسّك السجين بضلاله، أو على الظروف المحيطة بالقضيّة، فأصدر القاضي أمره بتنفيذ حكم الإعدام. وما أن غربت شمس ذلك اليوم حتّى أحاط موكبٌ بالسجين وسيق إلى ساحة توكومان العظيمة، حيث أعدّت منصة الإعدام، واحتشد الأهالي لمشاهدة ما سيحدث.

صعدتْ كاتالينا بثبات دَرَج المنصّة، وكانت حتى تلك اللحظة مصرّةً على عدم الكشف عن جنسها الحقيقيّ، وفي هذه المرّة أيضًا لم تُخف ازدراءها لطريقة الجلاد الأخرق في ربط الأنشوطة، ففعلت ذلك بنفسها على طريقة البحّارة المألوفة، فقابلها الحشدُ بالتصفيق والهتاف، وهو ما جعل القاضي المتردّد يأمر الجلّاد بالإسراع في تنفيذ الحكم، خوفًا من تدخّل الغوغاء ومحاولتهم إنقاذ السجين. لكنّ وَقْع حصان سريع يعدو نحوهم في تلك اللّحظة أجبره على التريّث، وفتح الحشد الطريق أمام الفارس المندفع، الذي تبيّن أنه كان يحمل طلبًا من رئيس لابلاتا[1] لإرجاء تنفيذ الحكم حتى ينتهي التحقيق مع سجينين آخرين.

كان هذا عمل السّنيورا وابنتها، فقد استطاعت جمع بعض المعلومات ضدَّ الشاهدَيْن، فلاحقتهما حتى لابلاتا، ونجحتْ في جعل الحاكم يأمر باعتقالهما، بعد أن تمّ التعرّف عليهما كمجرمينِ

(1) لابلاتا La Plata: هي الآن مدينة في بوليفيا.

قديمين. وبعد أن اعترفا، من شدّة الخوف، بشهادة الزور، نُقلت كاتالينا إلى لابلاتا، وبرّئت رسميًّا. وبناءً على نصيحة الرئيس، تم تأجيل البتّ في علاقة السجين بعائلة كْرِيول إلى أجل غير مسمى.

والآن، هل جعلت المغامرةُ الأخيرة كاتالينا ترى ما يجبُ رؤيته في العالم الجديد؟ ربما رأتْ بعضَ المشاهد الجميلة في أوروبا سابقًا، ولكن لا شيء من هذا القبيل رأته بعد ذلك في أمريكا.(دوّنت ذلك في مذكراتها.) إذا كانت أوروبا قد سمعت باسمها (وهو ما سيحدث قريبًا) أو كان الملوك والبابا والكرادلة، على علم بوجودها (وهو ما سيحدث في غضون ستة أشهر)، فلابد من أنهم كانوا يتوقون للتعرّف عليها.

أنت بالكاد فكرّت الآن أيها القارئ، أنها كانت فعلًا شخصًا عظيمًا. بوركتَ يا سيدي، فهي لم تكن لترانا إلا بنظرة ازدراء. أقول لك: إن الأُسر الملكية تتشوّق لرؤيتها، وهذا قد يحدث قريبًا. ولكن كيف يمكن أن يتحقّق ذلك إن كانت مصرّةً على إحاطة نفسها بكلّ هذا الغموض؟ من المؤكد أنّ هذا لا يمكن أن يحدث دون نُقلةٍ دراميّةٍ مفاجئة أودوّامةِ حظّ مدوّخة. فلنمضِ إذن كي نتعرّف على ذلك في مغامرتها القادمة التي ستلقي الضوء على الماضي بأسره، والتي ستجعل الملوك، الذين لم يكترثوا إليها تحت سماء بلاد البيرو، يسارعون إلى تكريمها.

بمقتضى نصيحة من الرئيس ميندونيا قدّمت السنيورا ما يكفي من الأموال لتغطية نفقات سفر كاتالينا. لاحظ أنها عندما تعامل

كاتالينا بلطف إنما تعبّر سرًّا عن مشاعرها هي، وعن مشاعر جوانا في الوقت نفسه. حسنٌ حتى الآن، لكن السيد ميندونيا اختار أن يضيف تعديلًا صغيرًا إلى وصية كْرِيُول لم تقترحها هي أبدًا، أو حتى ابنتها. قال هذا الرئيس الفضولي الذي من المؤكّد أنه وجد ما يكفي من الأعمال ليشغل بها نفسه في لابلاتا: «صَلِّ، يا سيد بيترو دياز. هل سبق لك العيشُ في كونثيبثيون؟ وهل تعرّفتَ هناك على السيد ميغيل دي إراوسو؟ ذلك الرجل، يا سيدي، كان صديقي».

ما يدعو للأسف أن كاتالينا لا يمكن أن تغامر في هذه المناسبة بأن تكون صريحةً! ولكم كان من الصائب حقًّا أن تقول: «كنّا صديقين! أعتقد أنكَ بالكاد يمكن أن تكون كذلك، بينما تفصل بينكما سبعمائة ميل. هذا الرجل كان صديقي، بل وأخي أيضا. صحيح أنّي قتلته، لكن ذلك حدث عن طريق الخطأ لأنني طعنته في ظلام دامس. يا لك من عجوز نذل إذ تذكّرني بهذه المأساة!» ومع ذلك فكّرتْ كاتالينا مرةً أخرى، وكما هو الحال في كثير من الظروف المشابهة، أنّها ربّما تتسبّب في مزيد من التعاسة إذا تحدّثتْ بصراحةٍ ونزاهة. وبالفعل، إذا كانت حقًّا بيترو دياز، كيف يستقيم أنها كانت فعلًا شقيق السيد الراحل إراوسو المحترم؟ وإذا لم تستطع قبل ذلك إخبار الجميع، فهي لا تستطيع الإعلان عمّا جمعهما من أخوّةٍ لم يتم الإفصاح عنها من كليهما أثناء وجودهما معًا! لا شك أن فعلًا كهذا سيسيء إلى سمعة كاتالينا، والتي، بالتّأكيد، تحتاج إلى تطهير. وإذ أنظرُ إلى كيت بنوع من الرأفة، فإنني لا أشعر بالتسامح مع الرئيس بسبب نصحه للسيد بيترو وهو يقول:

«من الأفضل لك أن تسافر، من أجل صحّتك».

ما علاقته بصحّة الآخرين؟ ومع ذلك، فإن السيد بيتر مثلما كان قد استلمَ الأموال من السّنيورا، استلمَ كذلك نصيحةَ الرئيس التي أُرفقت بمبلغ إضافي. وهكذا ذهب لشراء حصان. كان الحظّ يرافقه في هذا اليوم، فإلى جانب المال ونصيحة الرئيس، حصل بسعر منخفض على حصان جميل مُناسبٍ لرحلته. وسرعان ما شدّ الرحال إلى باز[1]، أو «مدينة السلام»، ذات الاسم المزدهر. لكنّ هذه البلدة لم تفِ بما وَعَدَ به اسمُها، لأنها حرّكت العداوات التي جعلت عزيزتنا كِيتْ تغادر أمريكا.

كانت مغامرتها الأولى بلا أهمّية، تصلح لكتاب نكاتٍ أكثر ممّا تصلح لكتاب تاريخ. ولكنّها لم تكن نُكتةً فعلاً، بما أنّها أدّت إلى المأساة اللاّحقة.



(1) باز Paz: مدينة أسسها الإسبان في جبال الأنديز، تقع الآن ضمن الحدود البوليفية.

(3)

وهي تمتطي جوادها الأسود وتدخُل مدينة «باز»، اجتذبت كاتالينا، حاملة الرّاية الشّجاعة، جميع الأنظار. في هذه البلدة الإسبانية كان مثل هذا الأمر ليلفت نظر أهاليها الكسالى، وكانت كيت مُعتادة على ذلك. ولكن بعد أن حظيتْ بالكثير من الاهتمام أينما تنقّلت، ورغم أنها من طينة أولئك الذين لا شيء يمكن أن يؤثّر في معنوياتهم، لاسيما إذا اتّسم بالوقاحة، فقد شعرتْ بالانزعاج من مراقبة جنديّين يرمقانها بنظرة بدت أكثر اهتمامًا من مجرّد الإعجاب بجمالِ الحصان الأصيل وفارسه الوسيم.

وبينما هي تمتطي جوادها، وتصفّر له بمرح، إذ بشخص يمرق أمامها. ولم يكن ذلك سوى مأمور البلدة! نعم، المأمور! الآن ترى شخصًا مكلّفًا بمهمّة ضدّها، رغم أنّه لم يكن معروفًا لديها. كان يبدو متجهّما، حتّى إنّها تساءلت عمّا إذا كان لسيادته أيّ أوامر. قال:

«هذان الرجلان، هذان الجنديّان، يقولان إنّ هذا الحصان سُرق منهما».

لم يكن مُضحكا بالنسبة إلى شخص أفلت للتو بشقّ الأنفس من مكيدة شاهديْ زور، سماع المزيد من الاتهامات الجديدة. كانت كيتْ مُتوتّرة جدّا، لكنها لم ترتبك أبدًا. انتزعت بسرعة خاطفة مِفرَش السرج الذي كانت تجلس عليه، وألقته على رأس الحصان، فغطّت ما بين أذنيه وفمه، ثم قالت:

«اشتريتُ هذا الحصان في لابلاتا ودفعتُ ثمنه. ولكن سيادتكم، إذا كنتُ سرقتُ هذا الحصان من هذين الرجلين، فعليهما الآن أن يخبرانا أي واحدة من عينيه هي العمياء، ولن تكون بالطبع إلا واحدة، اليمنى أو اليسرى؟».

صاح أحد الجنديّين على الفور:

«إنها العين اليسرى».

لكن الآخر قال:

«لا، لا، لقد نسيت، إنها اليمنى».

جلبت كيت الانتباه بمكر إلى هذا الاختلاف في الإجابة. في البداية قالا إنهما تعجّلا، والآن، بعد أن زعما أنهما تذكّرا، اتفقا على أنها العين اليسرى. قال المأمور:

«هل اتفقتما على هذا؟ إذن، فليكن، هي العين اليسرى».

نزعت كيت مِفرش السّرج عن رأس الحصان، وقالت ساخرةً:

«الآن، سيدي، أرجو أن تلاحظوا أن هذا الحصان لا يعاني من شيء في أيٍّ من عينيه».

كان كذلك في الواقع. لم يتردّد «سيادته» فأمر مساعديه بالقبض على الجنديّين اللذين أُرسلا إلى حيث يتقوّتان على الخبز والماء، في حين ذهبتْ كيت تبحث عن أفضل طعام عشاء في بلدة «باز».

ومع ذلك، لم يكن مقدّرا للعلاقة بمأمور «باز» أن تنتهي هنا، فقد فكّرَ في شأن هذا الفارس الصغير، ورأى أنه كان من غير اللائق أن يستجيب لشكوى الجنديّين، فيتهمه بقسوة، ويوجّه تهمة كهذه إلى شخص مثله. أرسل ابن عمه الدّون أنطونيو كالديرون، ليعتذر من ذلك الغريب الذي لم ينتبه لمكانته وطبيعة معدنه، وأن يخبره نيابةً عنه بأن حضوره وموافقته على تناول العشاء معه سيكون مدعاة فخر وشرف.

هذا التوضيح، وواقعُ أن السيد أنطونيو معروف بمكانته كابن عم لمأمور «كوزكو»[1] وابن أخ لأسقف هذه البلدة، دفع كاتالينا للقول، بعد أن شكرت السيّدان على ما أبدياه من احترام:

«أنا أيضا أحمل رتبة ألفاريز في خدمة جلالته الكاثوليكية. أنا مواطنٌ من بسكاي، وأستعدّ الآن للذهاب إلى كوزكو في مهمة خاصة».

صاح السيد أنطونيو:

«إلى كوزكو! كم نحن محظوظون! ابن عمي باسكيٌّ مثلكَ، وسيغادر إلى كوزكو صباح الغد. لهذا أيها الألفاريز، إذا وافقتَ، يمكننا أن نسافر معًا».

---

(1) كوزكو Cuzco: مدينة في جنوب شرق البيرو.

اتفقا على السّفر معًا. بالنسبة إلى ضابط متعب، من المبهج السفر مع رجلٍ سويّ، بل مع رمزٍ للعدالة نفسها، لا مع «شهود الزور» وصيّادي «الخيول العمياء». وهكذا رافقت كاتالينا السيد أنطونيو إلى بيت المأمور: السيد بيدرو دي شافاريا.

كان استقباله مميّزًا. كرّر المأمور شخصيًا أسفه على المشهد المضحك الذي جرى مع طبيبيْ العيون المشرّديْن، وقدمه إلى زوجته، وهي أندلسيّة رائعة الجمال، تزوّجها منذ عام تقريبًا.

ثمة سببٌ لوصف هذه السيدة، وقد أسهبَ محرّر مذكرات كاتالينا الفرنسي في هذا الموضوع. قال إنّها تجمع حلاوة المرأة الألمانية وحيوية المرأة العربية، وهو مزيج يصعب الحكم عليه. فبالنسبة إلى قدميها، يضيف، لا أستطيع أن أقول شيئًا، لأنهما بالكاد تُريان. يقول ريفيٌّ مشفِق:

«السيدة المسكينة! بلا قدمين ! يا له من أمرٍ مروّع أن تكون هذه المرأة الجميلة مبتورة!».

أوه، أيها الرّيفي العزيز، فهمتَ الأمر على نحو خاطئ تمامًا. قال الفرنسي هذا كمجاملة رفيعة جدًّا. لا بد أنها كانت جميلة، سندريلّا وليست دون ذلك، بما أنه لا يمكن لامرأة أن تقلّد مشيتها وخطواتها الأندلسية، دون شيء تطؤه يناسب قدميها بشكل خاص.

ما دفعني (كما قلت) إلى وصف هذه السيدة، هوعلاقتها بالأحداث المأساوية التي وقعت لاحقا. إنها تقف، بسبب طيشها

الإجرامي، وراء كل ما حدث. يتوجّب علي هنا أن أحذّر الواعظ المتخبّط من خطأين أرجّح أنه سيقع فيهما: الأول أنّ عليهِ قراءة مقتطفات من كتاب حبّ خليع، كما لو أنها ترد لهذا الغرض دون غيره. والثاني هو قراءة مذكرات الدونّا كاتالينا مع السّعي إلى التّخفيف من طابعها العسكريّ. يسعدني أن أؤكد له أنه بهذا، يتخبّط في ظلام دامس من الأخطاء، وأن أي تغيير يمكن أن يقوم به في آرائه، سواءً نحو اليمين أو الشِّمال، يجب أن يكون نحو الأفضل، أي ينبغي له أن يحسن ظنّه ويصلح سوء فهمه، وهي في حدّ ذاتها فكرةٌ مُفرحةٌ للعقل الوعظيّ المتخبّط.

بالنسبة إلى النقطة الأولى، فإن اللمحة الصغيرة التي سيأخذها عن الحبّ الخليع، من شأنها أن تجعل الوقائع اللاحقة التي تعتمد على هذه الخلاعة واضحة. ثانياً، في ما يتعلق بفكرة أن كاتالينا رغبت في تجميلِ مذكراتها، فاعلم أنّ مثل هذه الممارسة لم تكن موجودة آنذاك في الأدب الإسباني. فمذكراتها مثيرة فعلاً بوقائعها فقط، أمّا طريقة سردها لتلك الوقائع فهي جافّة على نحو ممنهج.

كان الدّون أنطونيو كالديرون فارسًا بارعًا ووسيمًا. وخلال العشاء، أدركت كاتالينا من خلال ملاحظة كل من هذا السيد وزوجةِ المأمور الجميلة، أنّ بينهما علاقةً. استنتجت هذا من اللغة الماكرة في نظراتهما. ودهشت بشدّة من كون المأمور كان أعمى تمامًا عمّا يحدث أمامه، وعلى الرغم من ذلك رأت في يوم أو اثنين ما أدّى إلى تغيير رأيها. بعضُ الناس يرون كل شيء بادّعاء أنّهم لا يرون شيئًا. ومع

ذلك فإن هذه العلاقة برمّتها لم تكن تعني لها شيئًا على الإطلاق، ولربما عمدت إلى نسيانها وتجنّب التفكير فيها تمامًا، لولا ما حدث في الرحلة.

كانت ثمان ساعات متواصلة من السفر يوميًّا على طرق مزريةٍ، تكفِي تمامًا البشر والدّوابّ، أن يقطعوا فيها ما بين عشرة واثنا عشر فرسخًا. في اليوم الأخير وصلت المجموعة المسافرة، وهي المجموعة نفسها التي التقت في حفل العشاء الأخير، إلى بلدة صغيرة على بعد عشرة فراسخ عن كوزكو. كان مأمور هذا المكان صديقًا للسيد بيدرو دي شافاريا، وبفضل نفوذه تحصّلوا على مأوى مريح أفضل من ذلك الكهف الذي أطلقوا عليه اسم «خان»، وأفضل بالطبع من أي ركن اضطرّوا إلى البقاء فيه في حظيرة أو إسطبل.

كان دي شافاريا ينام في منزل صديقه المأمور، أما الفارسان الشابّان كالديرون وكاتالينا فكانا يأويان إلى غرفتيهما في الفندق، بينما حُجزت للسيدة إقامة مميّزة وهي مضافة صغيرة مريحة في حديقة مغلقة كانت تستخدم للاستجمام. ولأنه فصل الصيف، وكان المنزل محاطًا بالزهور المداريّة، فقد فضّلت السيدة (على الرغم من وحدتها) الانتقال إلى قصر النبيل الإسباني لأنه أفضل تهويةً، وهو الرجل الذي كان، في رأيها المتواضع كما قالت، نتنَ الرائحة مثل قصره، وليس قصره أقلّ نتانةً منه.

بعد تناول الطعام معًا في الفندق، وبعد أن استراح المأمور من مهامه، ذلك أنه كان صدًى لدون كيشوت (كانت شهرته واسعة الانتشار آنذاك في أمريكا الإسبانية)، بدأ الشابُّ الذي لم يكن

ضابطًا شابًا، والضابطُ الشّابّ الذي لم يكن شابًّا، يتسكّعان معًا في الجناح الصغير المُلحَق بالحديقة، بهدف إبداء احترامهما للحسناء.

استقبلا بلطافةٍ كبيرة، وكان لهما شرف اللقاء هناك بـ«نتانة» المأمور، و«عفونة» دي شافاريا، اللذين حسّنا حديثهما بعض الشيء، دون أن يكون متكافئًا. كيف استطاعا الاستمرار تحت ثقل هذين العبئيْن؟ على أي حال، لم ينفرط عقد المجموعة حتى الحادية عشرة، ثم نزل السيّدان الرسميّان الدَّرَج باتجاه الحديقة، ولأن كاتالينا نسيتْ قبعتها، عادت إلى الردهة الصغيرة بحثًا عنها، وهناك لاحظتْ شيئًا بمحض الصدفة. وجدت السيّدة الحسناء وكالديرون يتبادلان بعض الكلمات الأخيرة وعددًا قليلًا من الإشارات والإيماءات التي فهمتها بوضوح. أطفأت السيدة الشموع، بينما رمقها الشاب بنظرة تشعّ ذكاءً، ثم نزل الثلاثة الدرجَ معًا، وأعربت السيدةُ عن رغبتها في استنشاق هواء منعش فرافقتهما إلى باب الحديقة. ولكن كاتالينا لاحظت أثناء ذلك شيئًا آخر لم يبدُ بريئًا، إذ لمحتْ عينين تختبئان بين الشجيرات لبعض الوقت، ثم سمعتْ حفيفَ الأوراق بعدها مباشرة. فتساءلت السيدة:

«ما هذا؟».

وأجاب دون أنطونيو بلامبالاة:

«لعله طير يأوي إلى الشجيرات».

كانت كاتالينا، كعادتها، قد قرأت كل شيء، ولم تغفل عن كل ما يحدث حولها. وعندما وصلتْ إلى الفندق، كانت تعلم ما سيحدث

لاحقًا، فلم تأوِ إلى الفراش، بل تمشّت قرب المنزل. لم تنتظر طويلاً، ففي خمس عشرة دقيقة، فُتح الباب بهدوء، وخرج كالديرون.

تقدّمتْ كيت إلى الأمام، وواجهته مباشرةً. قالت له ضاحكةً إنه ليس من الجيد لصحته الخروج في هذا الوقت من الليل، وبدتْ بعض علامات نفاد الصبر على الشاب، فأخبرته كيت بشكوكها على نحو جدّي، مؤكّدةً أن المأمور ليس أعمى كما قد يبدو له. شكرها كالديرون على هذه المعلومات، وقال إنّه سيكون حذرا. ولتفادي أيّ اتّهاماتٍ أخرى، فقد انصرفَ في الحين يشقّ الظّلام. لحقته كاتالينا وعبرت الحديقة بصمت، تقريبا في نفس الوقت مع كالديرون. اتّخذ كلّ منهما موقعًا وراء الأشجار، وفي حين لم يكن كالديرون يرى شيئًا سوى الشموع الموقدة، كانت كاتالينا تراقب الأرجاء لتوجّه حركاتها. عندما أُخمدت إحدى الشّموع، تقدّم كالديرون إلى الأمام باتجاه الدّرج، وصعد بسرعة، ثم عبر الرّدهة، بينما تبعت كاتالينا خطواته. ما تبع ذلك كان مشهدًا متواصلًا من عواطف الرّعب المختلفة والصراع المميت والخُبث الجهنميّ الذي يخنق جميع الألفاظ. في لحظةٍ سُمع صوت غرغرة، كأنه صوت وحش برّي يحاول عبثًا أن يصرخ بينما يخنقه كائن مّا. ثم ظهرت كتلة سوداء ملتحمة أمام الباب، اضطربت وانفصلت إلى كتلتين، ثم التأمت، ثم انفصلت مرةً أخرى، وأخيرًا سقطتْ من أعلى الدَّرَج. إثر ذلك ظهر شخص يلفّعه البياض. كانت الأندلسيّة الحزينة التي شاهدت كاتالينا عن بعد، فركضتْ نحوها، غير

قادرةٍ على نطق كلمة واحدة، وإذ أشفقت عليها كاتالينا لما أصابها من رعب، ضمّتها إليها وغطّتها بعباءتها، ثم خرجت بها إلى بوابة الحديقة.

في ذلك الوقت لفظ كالديرون أنفاسه الأخيرة. نهَض المأمور ليلحق بزوجته، لكنّ كيتْ، وقفتْ بهدوء في ظلّ جدار الحديقة، متنبّئةً بما سيفعله. مرّ غير بعيد عنها وهو يراقب الطريق المؤدي إلى المدينة، وعندما لم ير أي شخص يتحرّك، عاد، لسبب مّا، إلى المنزل.

في تلك اللحظة وصلت كيت إلى الفندق مع السيدة التي لا تزال تلهث رعبًا. ما الذي ينبغي القيام به؟ كان التفكير في إخفائها في هذا المكان الصغير غير مجدٍ، فدي شافاريا كان ذا نفوذ كبير في هذه البلدة، ومن المؤكد أنه سيقتل زوجته حالما يراها. لكن مروءة كيت لا تسمح لها بالتواطؤ مع محاولة القتل.

كان يرأس الدّير الرئيسي في كوزكو أحد أقرباء السيدة الأندلسيّة، وستجد مأوى لديه بكل تأكيد. لهذا أسرجتْ كيت حصانَها بسرعة، وأردفت السّيدةَ خلفها، وانطلقتْ تعدو في الظلام.

على بعد خمسة أميال من المدينة، قطعَ سيلٌ جارفٌ عليهما الطريق، ولمّا لم يتمكنا من العثور على جسر لعبوره، صاحت السيدة «إلى الأمام!». كرّرت كيت أمرها للحصان المطيع، وفي هذه المرة قفز إلى الماء. في البداية غرقوا جميعًا. ولكنّ الحصان حرّر رأسه، ليسبح في ظلام منتصف الليل، متخلّصا من كلّ العوائق، نحو الضّفة المقابلة.

كانت ملابس كيت والسيدة الأندلسيّة تقطر ماءً. وإذ رأتا ضوءًا يتلألأ من نافذة كوخ أحد العمّال الفقراء، امتطتا الجواد وسارتا نحوه لترتاحا قليلًا وتتدفآن. اشترت كيت من الرجل وشاحاً للسيدة التي كانت، إلى جانب الحمّام البارد الذي نالته، ترتدي ثوبًا مسائيًا خفيفًا. ولولا عباءة الفارس الذي أنقذها لهلكت.

لم يكن هناك وقت تضيّعانه، فقد فقدتا بالفعل ساعتين منذ عبورهما النهر الجارف، ومازالت كوزكو تبعدُ ثمانية عشر ميلًا، كما أن المأمور سيخمّن الطريق الذي سلكته زوجته.

امتطتا الحصان، وسرعان ما ردّد الليل الصامت صدى حوافر الحصان الذي يلحق بهما، وبدأ سباق محموم يعدو فيه الفريقان كما لو أن الحياة بأسرها لعبة تتوقّف على فوز أحدهما.

كانت وتيرة السباق قاتلةً، ورجّحتْ كيت، كما كتبتْ في مذكراتها، أنّ المأمور كان هو الأفضل. قد يكون هذا موضع شك، فمن المؤكّد أن كيت خَبِرَت ركوب الخيل لسنوات طويلة في سلاح الفرسان الإسباني ولم تكن تخشى فروسية دي شافاريا ومهارته. ولكنّ العائق الأكبر تمثّل في الحمل المزدوج الذي ينوء به حصانها، بينما كان الحصان الذي يمتطيه خصمها أحد خيول دون أنطونيو القتيل وهي تعرف أي حيوان قويّ هو.

صارا على بعد ثلاثة أميال من كوزكو، وبدأت الطريق بعد ذلك تنحدر باتجاه المدينة، ويشتدّ انحدارها في بعض الأماكن، ما

يتطلّب فارسًا ماهرا لنزولها. وفجأة ظهر خندق عميق يترامى على امتداد الأفق، وكان من غير المجدي تجنّبه، أما التردّد أمامه فلم يكن يعني سوى النهاية.

رأتْ كيت أنّه من الضّروريّ القفز فوقه، لكنها شكّت كثيرًا في قدرة حصانها المنهك على القيام بتلك القفزة، بعد حوالي واحد وعشرين ميلاً من العدو المتواصل والشاق. ومع ذلك، فإن مبدأ كيت الأساسي الذي لم يفشل قط حتى الآن، سواء تعلّقت دلالته مجازيّا بشؤون الحياة، أو عمليّا بركوب السّرج، هو «ركوب المخاطر أهون من انتظارها»، وهكذا فعلت. عمدت إلى الدوران حتى تتمكّن من القفز بشكل أفضل. وعدا الحصان بعزم، ليستقر على الضفّة المقابلة، فغاصت قدماه الخلفيتان متراجعتين في طِين الحافة. لكنّ قبضةَ كيت القويّة على اللجام دفعته إلى الأمام. عشر دقائق أخرى وستكون في كوزكو.

ما أن رأى العمدة الشرير ما حدث، وكان أمل في الظفر بهما عند الوصول إلى الخندق، حتى انتزع بندقيته وصوّبها ثم أطلق النار باتجاه الحصان الأسود. ولكنّ هذه المناورة كانت بمثابة إعلان عن أنّ «سيادته» خسر الرهان الذي اعتمد عليه لكسب هذه المطاردة.

لو أنّني كنتُ أراهن على سباق الحواجز هذا، لكان من دواعي سروري، في غضون خمس عشرة دقيقة من هذه الطلقة الغادرة، أن أضع في كفّي كيت كل «شلن» من الودائع. ولن أستمع إلى أي هراء حول التحكيم أو الاحتجاجات. كما قالت كيت، فإنّ الرّصاصات

صفّرت بمحاذاة وجه السيدة المسكينة المتشبثة بها. ولحسن الحظ لم تصب أحدًا، لكنها جرحت الحصان. ثبّتت كيت قدميها بشكل جيّد في الرِّكاب استعدادًا لدخول كوزكو، وقد غمرها الشعور بالفوز في هذا السباق الرّهيب. واضطرب وقْع خطوات الحصان بسبب الجرح والطريق الشديدة الانحدار، وصار من الصعب على كيت توجيهه بدقة عبر المسارات الضيقة الشبيهة بردهات الكنائس. ومن الآن فصاعدًا، أصبح الحصان الجريح بحاجة إلى اهتمام كيت المستمرّ. إلاّ أنّها لم تمنع نفسها في غمرة استمتاعها بفوزها، من الالتفات قليلًا وهي على السّرج لترى أداء المأمور الأشبه ببهلوان على حبل مشدود فوق الخندق. ربما صار أداؤه الفروسيّ أكثر وهنًا، ولم يكن على دراية كاملة بكيفية التعامل مع حصانه. وإلا لكان من الأفضل له أن يستدير حول الخندق أو أن ينسحب عائدًا. لكنّ هذا كان مستحيلًا بالنسبة إليه، إذ يجب عليه إتمام المهمة. ويسعدني أن أخبركم، من أجل رضا القارئ، بما جرى لاحقا. فما أن تمالك العمدة نفسه بعد هذه الخسارة، حتى قام بالتفاف طويل جدًا، كأنّه يرسم حدود مخيّم شاسعٍ، أو حدود روما، ثم انقضّ فجأةً، مثل برق، على الخندق الموحلِ ويداه تلوّحان في الهواء. لكنّ الحصان رفض القفز، وكردّ فعل وحيد أمكنه القيام به، ألقى «سيادتَه» أرضًا، فسقط على كومة من الرّمل أثارت سحابة من الغبار، رافقتها زقزقة الطيور في هواء الصباح العليل. للأسف، لم يكن لدى كيت ما يكفي من الوقت لترنّم له عبر الفضاء بكلمة «مرحى». نجا المأمور بالكادِ من كسرٍ في عنقه، لكنّ هذا العنق لن يكون صالحا له بعد عشرين دقيقة،

مثلما سيعرف القارئ عمّا قريبٍ. مضتْ كيت قُدمًا والسيّدة خلفها، بحصانٍ ملطّخ بالدماء، يمشي بوتيرة لا تناسب كلاب الصيد. كان من اللائق فعلًا أن يُخصّص لها استقبال حافل في كوزكو، ولكنها وصلت، للأسف، عندما كان جميع الأهالي في أسرّتهم.

كان سباق الحواجز في كوزكو طويلا ومتعبا، مع الأخذ بالاعتبار السيل الجارف والخندق والحصان الجريح، والسيدة الحسناء بمخاوفها الرهيبة خلفها، مع هذا الفجر الوديع كيمامة. لكن الختام جمّع كلّ التّغيّرات التي بإمكان االميلودراما أن تعيشها. وصلت كيت إلى الدّير بأمان، فتقدمت إلى الرواق الكنسي، واستغرق إيقاظ الخدم بعض الوقت، ثم سلّمت السيدة الأندلسية الجميلة، كأنها تسلّم طردًا شخصيًّا. وما أن عادتْ إلى الشارع عبر بوابة الدّير الواسعة وخَطَتْ قليلًا، حتى وجدت المأمورَ واقفًا أمامها. كيف نجا من الخندق؟ لا أحد يعلم! فهو لم يقل شيئًا، كما لم يكن لديه وقتٌ كافٍ لكتابة مذكّراته، أما حصانه فكان أميًّا جدًا. لكنّ المأمور نجا، ودون أن تحسّن هذه المغامرة من طباعه الحادّة على الإطلاق، شعر بحقدٍ فظيع، بعد أن أدرك أنّه أضاع فريسته إلى الأبد. ولم يكن أمامه في ضوء ذلك الصباح المبكّر، سوى أن يستلّ سيفه ويهاجم كيت بغضب.

كانا منهكيْن، وكانت كِيتْ ستجنح إلى الهدنة بطيب خاطر، فهي ليست على نزاع شخصي معه، كما أنها حقّقت هدفها الوحيد بإنقاذ السيدة وإيوائها في مكان آمن. استطاعت بصعوبة أن تستلّ

سيفها، لكنه انتهز فرصة تريّثها فأصابها بجرح بليغ. وقد كان هذا كفيلا باستثارة دمها القديم، لتواجهه الآن بعزم.

في تلك اللحظة وصل اثنان من خدم العمدة، ليشاركا سيدهما القضاء على كيت، وقد زاد ذلك من عزم كيت وبثَّ فيها المزيد من القوة، إلا أنه أضعفَ فُرَصَها. وإذّاك فقط وصل شخص آخر، هو خادم دون كالديرون، فاصطفّ إلى جانبها، وتكافأت الفرصُ إلى حدّ مّا، فغرزت كيت سيفها في جسد دي شافاريا الذي مات على الفور. ومع هروب خادم كالديرون إثر ذلك، ظهر حرس المدينة الذين ساعدهم خادما دي شافاريا على محاصرة كيت فأصبحتْ تقاتل الآن من أجل النجاة بحياتها، وبدأتْ شيئًا فشيئًا تفقد قدرتها على مواجهة هذا العدد، إلى أن فُتحت بوابة الدير على الجانب الآخر من الشارع وظهر منها خادم كالديرون الذي فرّ قبل قليل، والأسقف، ومساعدوه الذين هرعوا نحو كيت بأسرع ما أمكنهم. قال الأسقف:

«أيها الفارس، باسم العذراء، أطلب منك أن تسلّم سيفك».

قالت كيت:

«سيدي، لا أجرؤ على فعل ذلك بينما يحيط بي الأعداء».

أجاب الأسقف:

«لكنّي أكفل سلامتك بموجب القانون الذي سيسائلني إذا لم أفعل».

تبجيلًا للأسقف استجابَ الجميعُ ورموا سيوفهم. ولأن كيت كانت مصابةً بجرح بليغ قادها الأسقف إلى الدير، وما هي إلا برهة

صغيرة حتّى أصبحتْ عاجزة عن إخفاء أنوثتها أكثر من ذلك، فقد تدفّق دمٌ غزيرٌ من الجرح الذي أصاب نهدها. طلبت السّماح لها بمقابلة خاصة مع الأسقف الذي روتْ له كلَّ ما مرّ بها، وتم استدعاء الجرّاحين والخدم على عجل، وأغمي عليها.

أشفقَ عليها الأسقف الطيّب، وطلبَ منها البقاء في قصره، ثم انتقلتْ إلى الدير، ومنه إلى دير آخر في ليما[1] وبعد عدّة أشهر، وصله ردٌّ على تقرير تضمّنَ جميع التفاصيل كان قد أرسله إلى الحكومة الإسبانية، مفاده أن الراهبة، بأمر من الملك والبابا، يجب أن تُنقل على الفور إلى إسبانيا.

نعم، بمرور الوقت، يجبُ على السيدة المحاربة، الضابط الوسيم، هذه الراهبة العسكريّة، هذا الفارس الشديد الجمال، أن «تزور» مرةً أخرى مرتعَ الطفولة الذي لم تره منذ سبعة عشر عامًا. ردّدت كل إسبانيا والبرتغال وإيطاليا صدى مغامراتها. إسبانيا، من الشمال إلى الجنوب، تحدوها رغبة جارفة في النظر إلى طفلتها التي تتّقد حماسًا، الطفلة التي ألهبت سيرتها وبطولاتها الخيال الوطني.

يجب على ملك إسبانيا تقبيل ابنته المخلصة التي لم تسمح بتدنيس رايته. يجب على البابا تقبيل ابنته الضالّة التي ستكون، من هنا فصاعدًا، حَمْلًا تائهًا يعود إلى حظيرته المقدّسة. عندما يتحدّث عاهلان مثلهما بكلمات مفعمة بالحبّ، فإنهما لا يتكلمان عبثًا. غُفر لها كلّ شيء، تدنيس المقدّسات وسفْك الدماء والهروب وازدراء

---

(1) ليما Lima: عاصمة البيرو.

مفاتيح القدّيس بطرس. تم إصدار العفو، والتوقيع عليه وختمه.

يا له من يوم حزين وبهيج في الوقت نفسه. في الأسبوع الأول من شهر نوفمبر 1624، عندما اقتربت كيت العائدة إلى الديار من شاطئ الأندلس، وهي تهبط إلى الزورق، جذّف بها البحارة بأزيائهم الملكيّة إلى ميناء قادش[1] فرأتْ كل سفينة وشارع ومنزل ودير وكنيسة، مكتظّة بالبشر عن آخرها، كأنه يوم القيامة. رجال، ونساء وأطفال، جميعهم يتطلّعون إليها بعيون اغرورقت حبًّا وتقديرًا. تجمّع أربعمائة ألف شخص في قادش وحدها، وخرجت الأندلس عن بكرة أبيها لاستقبالها. آه أي بهجةٍ تحيطُ بها، لو أنها لم تتذكّر جبال الأنديز وقممها المرعبة وسفوحها الأكثر رعبًا ! أي أسًى سيغمرها لو لم تجبرها الموسيقى والرايات اللانهائيّة، وهتافات الحماس، على الابتعاد عن جبال الأنديز إلى الشاطئ البهيج الذي اقتربت منه !

وقفَ على هذا الشاطئ، مستعدًّا لاستقبالها أمام كل هذا الحشد العظيم، رئيس وزراء إسبانيا، الكونت أوليڤاريس[2]، الرجل الذي وقف متغطرسًا متنمّرًا، قبل عام من ذلك، أمام متغطرسٍ ومتنمّرٍ آخر هو دوق بوكينغهام. قبل عام من ذلك، كان أمير ويلز في إسبانيا، واستقبل بترحيب فاخر وفرح، ولكنه ترحيب لا يساوي ذرة من هذا الترحيب الذي قوبلت به الراهبة العائدة إلى الديار،

(1) قادس أو قادش Cadiz: أحد أقدم الموانئ في جنوب إسبانيا.

(2) الكونت أوليڤاريس Conde Olivarez: رئيس وزراء ملك قشتالة الإسباني فيليب الرابع بين 1621 إلى 1643.

كما أن أوليڤاريس الذي تحدّث مع الدوق الإنجليزي بتنمّر، كان بالغ الرقّة معها، وقادها عبر حشود لا تنتهي من الأهالي المحتفين بقدومها إلى الملك الذي ضمّها بين ذراعيه، وجلس مستمعًا إليها دون ملل. أصبح يرسل لاستدعائها باستمرار، مستمتعًا بمحادثتها وسماع مغامراتها الجديدة والعفوية المثيرة، وأمر بمنحها نفقةً لم يسبق لها مثيل في ذلك الوقت بالنسبة إلى أيّ ضابط صغير الرتبة. ونزولًا عند رغبته، ذلك أن 1625 كانت سنة اليوبيل الملكي، غادرتْ في غضون بضعة أشهر من مدريد إلى روما. ومرّت عبر برشلونة حيث تم الترحيب هناك، بل في كل مكان، بالسيدة التي أسعدَ الملكَ تكريمُها والاحتفاء بها.

سافرت إلى روما، وأُشرعت جميع الأبواب لاستقبالها، وقُدّمت إلى قداسة البابا، مع رسائل من صاحب الجلالة الكاثوليكية، بالرغم من عدم حاجتها إلى تلك الرسائل. أُعجب بها البابا كثيرا مثلما فعل من قبله، وطلب منها أن تروي له جميع مغامراتها. وَأكثر ما أثار إعجابه هو روح الصّدق والأسى التي وَصَفَتْ بها نفسَها فلم تظهر بأفضل أو بأسوأ مما كانت عليه حقًّا، فكيت لم تكن متباهيةً على الإطلاق، أو متملّقةً، أو تدّعي التواضع.

البابا أوربان الثامن[1] الذي شغل آنذاك كرسي القديس بطرس، لم يتوانَ عن رفع أفكار ابنته والتسامي بها عن الدنيويّات. أشار إليها أن تنظر إلى الغيوم التي كانت فوق قبة كاتدرائية القديس

(1) أوربان الثامن Urban VIII (1568 - 1644): بابا الكاثوليك (منذ 1623 حتى وفاته)، قام بتوسيع النفوذ المسيحي بقوة السلاح.

بطرس، وأخبرها بما حدّثتها الكاتدرائية وهي بين الغيوم الرائعة على جبال الأنديز أثناء صلوات المساء، وكم كان ذلك بهيًّا ومقدّسًا، لأنه أعادها إلى الرب، وذكّرها ألا تنغمس في إراقة الدماء. قال لها أيضا كلمتين باللاتينية ستجعلان القارئ يبتسم مثلما جعلتاني أنا نفسي، هذا إذا كان لدي ما يكفي من الوقت لتكرار ما قاله أسقف إسباني لكيت مذكّرًا إياها بهاتين الكلمتين الغامضتين، مع إجابة كيت الأكثر عفويّة وبراءة بما افترضت أنّه معناهما. تعرفون أنّ كيت تعلّمت القليلَ من اللاتينية، ولكنّ لغتها على الأرجح، لم تتحسّن كثيرًا بالانضمام إلى سلاح الفرسان الإسباني. يجب أن أجد الوقت، على أي حال، سواء كانت المجلّة[1] ومنضّدو الحروف في حالة غضب أم لا، كي أذكر أن البابا، في وداع ابنته العزيزة، التي لن يراها ثانيةً، منحها رخصة عامة لارتداء زيّ ضابط في سلاح الفرسان من الآن فصاعدا في جميع البُلدان، بما في ذلك أرض الكفّار partibus Infidelium. وهذا يتضمّن حذاءه، سوطه، سيفه، وحقيبته. وفي الواقع، أي شيء قد تتفق عليه مع خيّالة الحرس الملكي. لذلك أيّها القارئ لا تجرؤ على قول كلمة، ولا تُكبّد أيّ خيّاطٍ عناء قول كلمةٍ في سراويلِ ويلينغتون التي حيكت في غابة الكستناء. واعلم أنّ الغفران البابويّ إلى حدّ الآن يجُبُّ ما قبله وما بعده، وأنّ النّميمة على السّراويل في الجيش المنسيّ، أو على السّراويل القادمة، هو أمرٌ صادم وضالّ.

---

(1) يقصد دي كوينسي مجلة Tait's Edinburgh Magazine التي نشرت قصة كاتالينا عام 1847.

من روما، عادت كيت إلى إسبانيا، بل وذهبت أيضًا إلى سان سباستيان، المدينة لا الدَّيْر. سواء كان ذلك بسبب انطفاء مشاعرها أم لا. وهناك تجوّلت صعودًا وهبوطًا، وكانت موضع ترحيب في كل مكان، وحلّت ضيفَ شرف أينما ذهبت. ولكنها لم تشعر بالراحة والهدوء أبدًا في أي مكان. لم يتوقّف الفقراءُ والبسطاءُ عن الهتاف باسمها وإبداء إعجابهم بها. ومن بين الأغنياء والأرستقراطيين في إسبانيا، والملك على رأسهم، وجدتْ كيت حبًّا خاصًّا من فئتين من الرجال، الأولى هم الكاردينالات والأساقفة الذين شغفوا بها كما لو أنها ابنتهم التي عادت بعد غياب طويل. والثانية هم الضباط ورجال الجيش الذين تعلّقوا بها كما لو أنها أختهم التي تقاعدتْ للتوّ من الخدمة العسكرية.

في وقت مّا، عندما يتاح لي مجالٌ أكثر رحابة سأخبركَ لماذا أحببتُ هذه الـ«كيت». أما الآن، في هذه اللحظة، وقد أصبح من الضروري بالنسبة إلي أن أختم، إذا سمحتُ لك بسؤال واحد قبل أن أضع قلمي، إذا قلتُ: «تعال الآن بسُرعة واسأل ما بدا لك، لأنني خلال دقيقة واحدة سأكتب «النهاية»، ولن أتمكّن (ما لم تشأ الملكة[1] غير ذلك) من إضافة حرف آخر. أخمّن أن سؤالك سيكون: ماذا فعلت كيت بعد ذلك؟ كيف كانت نهايتها؟».

أيها القارئ! إذا أجبتُ عن هذا السؤال، ستقول إنّني لم أجب عنه حقًّا. إذا أخبرتك ذلك السرّ، ستقول إنّ السرّ لا يزال خفيًّا.

---

(1) يقصد دي كوينسي ملكة بريطانيا ألكسندريا فيكتوريا (1819- 1901).

ومع ذلك، ولأنني وعدتكَ، ولأنكَ سغضب إذا لم أجب، دعني أبذل قصارى جهدي، ولعلّ المصير السيّئ هو الأفضل.

بعد عشر سنوات من الضجر والتململ في إسبانيا، بينما كانت أفكارها تعود دومًا إلى جبال الأنديز، سمعتْ كيت عن رحلة جديدة على وشك الإبحار إلى أمريكا الإسبانية.

كان كلّ الجنود يعرفونها، حتّى إنّها علمتْ بكل ما يحدث في المعسكرات. ستخرج أعلى الرتب العسكرية في هذه الحملة. جميعهم أحبّوا كيت كأخت، وكانوا سعداء لسماع أنها ستنضمّ إليهم على متن السفينة وتشاركهم مائدتهم.

أبحرتْ هذه السفينة، مع سفن أخرى، وعند الوصول إلى أمريكا، رست في ميناء ڤيرا كروز[1]، ونزلَ حشدٌ كبير من الجنود إلى الشاطئ، وفعل الضبّاط بالمثل ولكن على نحو منفصل. كان في نيّتهم الحصول على عشاء مرح في فندق الميناء الرئيسي، بعد أن احتجزتهم السفينة لفترة طويلة. لكن سعادتهم لن تكتمل إلا إذا وافقت كاتالينا على الانضمام إليهم.

أما هي التي كانت لطيفةً دائمًا مع الجنود، فقد وافقتْ على ذلك. نزلتْ معهم إلى القارب الذي بلغ الشاطئ بعد عشرين دقيقة. قفزتْ مجموعةُ الضبّاط المرحين إلى الشاطئ، صغارًا وكبارًا، كأنهم تلاميذ سُرّحوا من المدرسة. هرعوا مسرعين باتجاه الفندق دون أن يفرّطوا في ما لديهم من وقت محدود. وإذ وَصَلَ الجميعُ إلى

(1) ڤيرا كروز Vera Cruz: ميناء ومدينة على خليج المكسيك.

الفندق، التفتوا يبحثون عنها متسائلين: «أين عزيزتنا كيت؟». آه، نعم، عزيزتي كيت، أين كنت حقًّا في تلك اللحظة المهيبة؟

من المؤكّد أنها نزلت إلى القارب وجلستْ فيه ريثما يصل إلى الشاطئ، لكن لا أحد، في حالة الارتباك العام تلك، كان متأكدًا من رؤيتها تنزل من القارب.

تمّ البحثُ عنها في كل مكان، فتّشوا البحرَ فلم يجبهم، نقّبوا الغابات فلم تدلّهم. لدي تخميني الخاص، لكن الجنود شتّتهم الحزن والارتباك، ولم يتوصّلوا إلى أي تخمين على الإطلاق.

حَدَثَ ذلك قبل مائتين وأربع عشرة سنة! أبحرتْ هذه الراهبة من إسبانيا إلى البيرو، فلم تعثر على السكينة ولم تجد مستقرًّا لقدميها[1]، أبحرتْ هذه الراهبة من البيرو إلى إسبانيا، فلم تعثر على السكينة ولم يهنأْ لها بال. أبحرتْ هذه الراهبة مرةً أخرى من إسبانيا إلى أمريكا، فوجدت السكينةَ التي نجدها جميعًا، ولكنها، أينما وُجدت، لا تُعرفُ في معسكرات إسبانيا المستقرّة في مدريد، ولا تُعرف في ردهات الكنائس المُستقرّة في روما، بل تُعرف عند ربٍّ عظيمٍ همسَ ذات مرة في أذن كيت على جبال الأنديز، ولكنّ ذلك بقي سرًّا طوال قرنين من الزمان، وسيبقى سرًّا أمام الإنسان إلى الأبد، إلى الأبد!

(1) يشبّهها الكاتب بالحمامة في سفر التكوين (8: 9): «فلم تجد الحمامة مقرًّا لرِجْلها».

صدر للمؤلّف نفسه
عن دار مسكيلياني

أيّام إيمانويل كانط الأخيرة
ترجمة: عبد المنعم المحجوب
مراجعة: وليد بن أحمد

«هل كانت الفلسفة عند «كانط» مِنْوَالَ تفكيرٍ أم نمَطَ عيشٍ، وضَرْبًا من السّلوك اليوميّ؟». ذاك هو السؤال الّذي يَبرز في الذّهن أثناء قراءة كتاب «الأيّام الأخيرة لإيمانويل كانط»، ويستبدّ بالقارئ حال الفراغ منه.

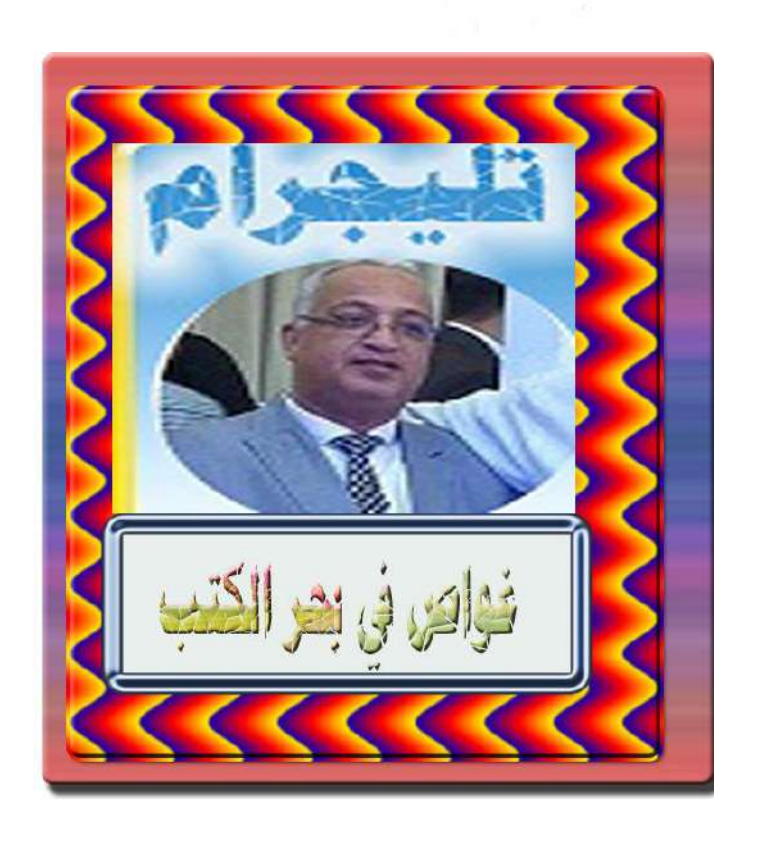
لقد كان «كانط» صارمًا في حياته صرامةَ نسَقِه الفلسفيّ، يُقدّس الواجب في معاملاته اليوميّة وهو الّذي جعل الواجب منشودًا لذاته في أطروحاته عن الأخلاق والقيم.

في هذا الكتاب يترسّم «توماس دي كوينسي» أنفاس «كانط» وهي تصّاعد إلى السّماء في براعةٍ فنيّةٍ لافتة. ويُعَدُّ مشهد الاحتضار من أقسى المشاهد في الكتاب لأنّه، ويا للمفارقة، كان من أمتع المشاهد فنيًّا. ألم تتحدّث الفلسفة الإغريقيّة، تراث «كانط»، عن

«لذّة الألم»؟ كان جسد «كانط» يتهاوى أمام ضربات الفناء، وقد شَقي بشيخوخته الشّقاء كلّه فتهادى في موكبٍ مهيبٍ نحو مستقرّ الفناء. بيد أنّ إرثه الفلسفي ظلّ يناطح الفناء باقتدار ويقتصّ لصاحبه في عنادٍ عنيد.

إنّها تراجيديا فناء كلّ إنسان مجسّدًا في «كانط». أمّا «كانط» فيظلّ رغم ضآلة جسده أعظم من الحياة بعقله.

د. فيصل الشطّي



توماس دي كوينسي

الراهبة الإسبانية

بنفَسٍ شديدِ الخصوصيّة، يحملنا «توماس دي كوينسي» في «الراهبة الإسبانية» إلى رحلة دونكيشوتية، بطلتُها «كاتالينا دي إراوسو»، راهبة تهرب من الدير الذي ترعرعت فيه راميةً عرض الحائط بكلّ اليقينيّات والمسلّمات المؤسّسة لمجتمع أوروبي محافظ وباتريركي.

تعتبر مسيرة «كاتالينا دي إراوسو» تكملة لمسيرة «دون كيشوت» في التمرّد على القيم القديمة للقرن السادس عشر، والتبشير بقيم أكثر تنويرًا وعدلًا واحترامًا للإنسان وقدرته على تأسيسِ عالمٍ جديد مغاير.

في «الراهبة الإسبانيّة» استطاع «دي كوينسي»، عبر السخرية السوداء وتضمين المعارف الإنسانية بشتى أنواعها، أن يقدّم لنا تحفةً أدبيّةً عن المغامرة والتوق إلى تحرير الذات من الحواجز والتشبّع بروح الصمود والابتكار أمام عهودٍ تفقد بريقها وعالمٍ يشيخ يومًا بعد آخر.

محمّد الحباشة


ISBN 978-9938-24-105-1

